قداسة البابا شنودة الثالث

تأملات في
صلاة الشكر والمزمور الخمسين

Contemplation in the Prayer of Thanksgiving and Psalm No. 50.

الكتاب : تأملات في صلاة الشكر والمزمور الخمسين .
المؤلف : قداسة البابا شنودة الثالث .
الطبعة : الأولي فبراير ١٩٩٠م .
المطبعة : الأنبا رويس الأوفست ــ الكاتدرائية ــ العباسية .
رقم الإيداع بدار الكتب : ٢٨٦٩ / ١٩٩٠ .

قصة هذا الكتاب

صلاة الشكر والمزمور والخمسون ، نصليهما في بدء كل صلاة من صلوات الأجبية . كما أن صلاة الشكر أيضاً توجد في مقدمة القداس الإلهي ، وفي مقدمة كل أسرار الكنيسة وكل صلاة طقسية .
لذلك كان أول كتاب أصدرته أسقفية المعاهد الدينية والتربية الكنسية كان " تأملات في صلاة الشكر " . صدر باللغة العامية وقتذاك سنة١٩٦٤ ، ثم أعادت طبعه مرات كنيسة العذراء بمحرم بك بالإسكندرية . ونشره الآن بعد أعاده صياغة باللغة العربية ، بعد أن أضفنا إليه تأملاتنا في المزمور الخمسين . وأتذكر أنني أخذت صلاة الشكر موضوعاً للتأمل طوال مدة العطلة الصيفية في محاضرات أسبوعية ، حينما كنت مسئولاً عن أسرة الروحيات في مدارس أحد الأنبا أنطونيوس بشبرا سنة١٩٤٨
أرجو من الرب أن يكون هذا الكتاب مقدمة لمجموعة كتب عن باقي الصلوات المشتركة في الأجبية . ونسأل الله أن يقبل صلواتنا جميعاً .

البابا شنودة الثالث

تأملات في صلاة الشكر

صلاة الشكر

فلنشكر صانع الخيرات الرحوم الله أبا ربنا والهنا ومخلصنا يسوع المسيح . لأنه سترنا وأعاننا وحفظنا وقبلنا إليه وشفق علينا . وعضدنا وأتي بنا إلى هذه الساعة . هو أيضاً فلنسأله أن يحفظنا في هذا اليوم المقدس وكل أيام حياتنا بكل سلام . الضابط الكل الرب إلهنا .

أيها السيد الرب الإله ضابط الكل أبو ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح ، نشكرك على كل حال ، ومن أجل كل كال وفي كل حال ، لأنك سترتنا ، وأعنتنا ، وحفظتنا ، وقبلتنا إليك ، وأشفقت علينا ، وعضدتنا ، وأتيت بنا إلى هذه الساعة . من أجل هذا نسأل ونطلب من صلاحك يا محب البشر ، امنحنا أن نكمل هذه اليوم المقدس وكل أيام حياتنا بكل سلام مع خوفك . كل حسد وكل تجربة وكل فعل الشيطان ومؤامرة الناس الأشرار ، وقيام الأعداء الخفيين والظاهرين . انزعها عنا وعن سائر شعبك وعن موضعك المقدس هذا . أما الصالحات والنافعات فارزقنا إياها ، لأنك أنت الذي أعطيتنا السلطان أن ندوس الحيات والعقارب وكل قوة العدو . ولا تدخلنا في تجربة . لكن نجنا من الشرير . بالنعمة والرأفات ومحبه البشر التى لابنك الوحيد ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح . هذا الذي من قبله المجد والإكرام والعز والسجود تليق بك معه مع الروح القدس المحيى المساوي لك الآن وكل أوان .

فلنشكر

إننا نبدأ صلواتنا بالشكر ، لأن إحسانات الله علينا في الماضي كثيرة جداً . قبل أن نطلب جديداً ينبغي أن نشكر الله على إحساناته السابقة . وكما قال ماراسحق " ليست موهبة بلا زيادة ، إلا التي بلا شكر " .

والله ليس محتاجاً إلى شكرنا ، ولكننا نحن المحتاجون أن نشكر الله . كلما نشكر الله نتذكر إحسانات الله . وكلما نتذكر إحساناته ، نشعر ونتأكد من حبة قلبه لنا . وكلما نتأكد من محبته ، تزيد الصلة بيننا وبينه . وهكذا نستفيد .

كما أن شكر الله وتذكر إحساناته يشجعنا أن نعيش في الرجاء . ونقول أن الذي حافظ علينا في الماضي . يحافظ الآن والذي ستر في الماضي ، يستر الآن . على رأي كاهن عجوز في الصعيد كان دائماً يصلي ويقول : " اللي قضي مضي يقضي ما بقي " . أي إن الذي ساعدنا على أن نقضي ما مضي من أيامنا ، يجعلنا نقضي ما بقي منها . فنحن نحاول أن نتذكر إحسانات الله إلينا ، لكي يكون لنا رجاء في المستقبل .

داود النبي كان باستمرار يذكر إحسانات الله إليه .

ليتكلم تحفظون المزمور ١٠٣ " باركي يا نفسي الرب ، وكل ما في باطني يبارك أسمه القدوس ، باركي يا نفسي الرب ولا تنسي كل حسناته ... " فهو يطلب أن تبارك الرب فليبارك الله من أعماق قلبه ، من داخله قائلاً " كل ما في باطني فليبارك إسمه القدوس " .

إننا نبدأ صلواتنا بالشكر ، وليس بالطلب ، لئلا يظن أنه لولا الطلب ما كنا نصلي ! أو أن صلواتنا صلاة منفعة ! لكننا نقول له قبل أن نطلب منه شيئاً : إننا مغمورون يارب بأحساناتك . فضلك علينا كثير . حتى إن كنت لا تعطينا الآن شيئاً ، يكفي ما مضي من إحساناتك علينا . إنها تكفي .

ونحن نشكر الله في شعور بعدم الاستحقاق . الشخص المنسحق النفس ، هو الذي يستطيع أن يشكر . لماذا ؟ لأن الإنسان المتكبر ، يظن في الخير المحيط به أنه هو أهل له ، وأنه يستحق نتيجة أعماله ، ونتيجة لجهاده . وقد ينسب كل الخير المحيط به إلى نفسه .

إذا نجح في إمتحان يقول : أنا ذاكرت هذه السنة وتعبت وإن كان في صحة ، ينسبها إلى عنايته بنفسه . وإن كان غنياً ، يقول حسن أنني اكافح في الحياة ، لذلك أتمتع بتعب يدي ، إنه ينسب الخير كله إلى نفسه .

أما المنسحق القلب ، فيشعر أنه لا يستحق شيئاً ، القليل الذي معه ، يشكر عليه كثيراً جداً . يقول له : يارب أنا لا أستحق كل هذا ! تخجلني نعمتك ومحبتك ، وإحساناتك . فلو عاملتني حسب استحقاقي ، لكنت أشابه الهابطين في الجب .

إن الذي يستطيع حقاً أن يشكر هو الإنسان المنسحق .

هناك أشخاص حياتهم كلها تذمر ، حياتهم كلها تضجر .

مهما أعطاهم الله ، لا يشكرون ، ومهما أخذوا ، لا يباركون الرب . باستمرار في تضجر وتذمر . لاحظوا أن أبوينا الأولين كان عندهم خيرات الجنة كلها . ومع ذلك لم يكتفيا واشتهيا الشجرة الباقية فالشكر ينشأ داخل القلب . على رأي ماراسحق " الذي لا يشكر على درهم واحد ، كاذب هو إن قال إنه يشكر على ألف دينار " . الشخص الذي لا يشكر على القليل لا يمكن أن يشكر على الكثير ، لأن عنصر الشكر غير موجود في قلبه .

حياة الشكر هي حياة رضا . إنسان قلبه راض ومستريح على الوضع الذي هو فيه . يقول له يارب أشكرك . مجرد بقائي كما أنا ، مجرد أني سائر على قدمي ، إنما هو نعمة عظيمة من عندك .

إن كنا لا نشكر ، فذلك لأننا لا نري ! لا نبصر إحسانات الله ! لأن عيوننا ترفض أن تبصر . لو كنا نري ما يحيط بنا نعم لكانت حياتنا كلها لا تكفي للشكر . فعلي الأقل وكل صلاة من صلواتنا نبـــدأها بالشكر . نشكر ربنا الذي خلقنا وأوقفنا قدامه . وأعطانا فرصة لكي نصلي ، وقلباً منتفخاً للصلاة ، وجعلنا مستحقين أن نرفع أيدينا إلى فوق .
ماذا نقول في صلاة الشكر ؟ نقول :

فلنشكر صانع الخيرات

سبب الشكر هو أن الله صانع الخيرات ، الذي لا يؤمن أن الله صانع الخيرات ، لا يمكن . يلزمنـــا – لكي نعيش في حياة الشكر – أن نؤمن أن الله صانع الخيرات .
الله دائماً يعمل خيراً ، لا يستطيع أن يعمل ، ولا يعرف أن يعمل إلا الخير . كل ما يعمله خير . " كل الأشياء تعمل معاً للخير للذين يحبون الرب " (رو٨ : ٢٨) السالك في محبة الله يري كل ما يحدث له خيراً .
فلنشكر صانع الخيرات ... نحن نشكر الله دائماً يصنع خيراً . صنع خيراً معنا في القديم ، ومازال يصنع معنا خيراً ، وسيصنع معنا خيراً في المستقبل . يصنع معنا الخير ونحن في برنا ، ونحن أيضاً في خطيتنا ، في دنسنا ووحلنا وقذارتنا . الخير الذي فيه لا يتوقف على بر فينا . هو يصنع الخير من أجل طيبته وحنانه وبره وصلاحه ، وليس من أجل استحقاقنا أو من أجل برنا .
والخير الذي يعمله الله هو خير في ذاته ، حتى لو كان يبدو لنا متعباً . أولاد الله يقبلون كل شئ من يده كخير ، مهما يبدو ذلك متعباً في ظاهرة .
مريض يذهب إلى الطبيب فيعطيه دواء حلو المذاق ، يشربه ويقول إنه خير . وحتى إن أعطي له دواء مر الطعم ، يشربه ويقول هذا أيضاً خير . لا يهم إن كان الدواء حلواً أو مراً . المهم أنه مادام من يد الطبيب ، فلابد أن يكون خيراً .
نحن نشكر الله لأنه لا يصنع إلا الخير . فالشر دخيل على العالم . عندما خلق الله المسكونة كلها ، " نظر إلى كل ما فعله وصنعه ، فإذا هو حسن جداً " (تك١ : ٣١) قد ينظر أناس إلى بعض مخلوقات الله على اعتبار أنها ضارة أو متعبه ! وهو لا يعرف الخير الذي فيها . كل شئ صنعه الله له خير معين ، ادركناه أو لم ندركه .
قرأت منذ سنوات طويلة بحثاً للقديس جيروم عن فوائد الحشرات والحشائش التي تبدو لنا ضارة . لأن إنساناً سأله :
" مادام الله يحب الخير ، فلماذا خلق الخنافس والصراصير والعقارب والثعابين والأعشاب المرة " فكتب له بحثاً عجيباً عن فوائد هذه الأمور ، وشرح بعض فوائدها من النواحي الطبيعة ، فتعجب أنه يوجد على بهذا الشكل في زمن جيروم في أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس ! فعلي الأقل في أيامنا هذه ، لابد أن نعرف أكثر ...
لو حاول كل إنسان أن يبحث عن الخير الموجود في أعمال الله . لكان يستريح . ففي كل مشكلة تصادفه يسأل نفسه : ما هو الخير الذي فيها ؟ ولماذا سمح الله بها ؟ أليس بسبب الفائدة ؟ طبعاً ، هناك فائدة عرفناها أو لم نعرفها ...
حتى الناس الأشرار الذين يبعثهم الله إلي طريقك ، فيهم خير وفائدة . ربما يعطونك فضيلة معينة ... الشخص الفاضل يعطيك قدوة صالحة . والشخص الشرير يعطيك فضيلة الاحتمال ، فضيلة محبة المسيئين والأعداء ، يعطيك فضيلة سعة الصدر ، لا أحد في الدنيا ليست وراءه فضيلة ... الأب العطوف يعطيك حناناً ، والأب القاسي يعطيك تربية وحزماً ويخرجك إلى الحياة متيبناً غير مدلل ...
فلنشكر صانع الخيرات ... الله يصنع خيراً . حتى لو فعل الناس بنا شراً ، فإن الله يحول الشر إلى خير . لأن الله رحوم .

الرحوم الله

الرحمة صفة من صفات الله التي تجعله يشفق على الإنسان ويحسن إليه . والرحمة طبع فيه . لا تظن أن الله يحسن إليك كمجرد مكافأة على عملك . إنه يحسن إليك لأنه رحوم حنون ، قلبه طيب ... طبيعته هكذا ...

تطبيق الصلاة في حياتنا

" فلنكشر صانع الخيرات الرحوم الله " . حينما تذكر ، اذكر أيضاً أن المفروض فيك أنك صورة الله ومثالة ، فالله خلقنا على صورته . إن كان صانع خيرات ، مفروض فينا أن نكون مثله ، كل واحد فينا صانع خيرات . إن كان الله رحوماً مفروض فينا أن نكون نحن أيضاً رحومين ، لأننا نحن أولاد الله ، ولابد أن نشبه أبانا السماوي ..

اسأل نفسك أثناء الصلاة هل أنا يارب على صورتك ومثالك ؟ وهل أنا مثلك اصنع الخير باستمرار ؟

أنت تصنع الخير مع كل أحد . تشرق على الأشرار والأبرار ، وتمطر على الصالحين والطالحين . وتشبع كل حي من رضاك . فهل أنا أيضاً أصنع خيراً مع الحبيب والعدو والصالح والشرير . أم أنني في صنع الخير ، أتأثر بمعاملات الناس وطباعهم ؟!

كلمة لطيفة قيلت عن السيد المسيح ، ليت كل منا يضعها أمامه كشعار له . قيل إنه " كان يجول يصنع خيراً " (أع١٠ : ٣٨) . يعمل خيراً مع كل أحد . أنا أتصور أن كل إنسان عاشر المسيح ، لابد أن يكون نال منه خيراً . حتى الذين هلكوا في خطاياهم ربما حياتهم كانت ستؤول إلى أسوأ ، لولا أنهم رأوا المسيح .

بيلاطس البنطي رأي المسيح في يوم ، في جزء من يوم . ومع ذلك تأثر به تأثيراً عجيباً . وارتعش أمامه وهو الوالي . وخاف وبذل كل المحاولات التى يستطيع جبنه أن يبذلها ، لكي ينقذ المسيح . وغسل يديه وقال لست أدري علة في هذا البار !!

المسيح حتى ساعة صلبه صنع خيراً وهو مسمر على الصليب : صنع خيراً مع اللص اليمين فوعده بالفردوس . وصنع خيراً بيوحنا ، فأعطاه بركة وجود العذراء في بيته . وصنع خيراً بالبشرية كلها ففداها .. صنع خيراً بقائد المائة ، الشخص الذي ضربه بالحربة ، فآمن به بعد صلبه ... صنع خيراً بكل أحد . المسيح كان يجول يصنع خيراً . وأنت يا أخي . هل تجول تصنع خيراً ؟ الحياة المسيحية ليست حياة سلبية . أعني أنه لا يكفي أن تقول أنا اليوم لم أعمل خطية ... هذا من الناحية السلبية . إنما من الناحية الإيجابية إسال نفسك ما هو الخير الذي فعلته في هذا النهار ؟ ما هو الخير الذي فعلته مع كل إنسان قابلني ؟

مفروض أن كل إنسان يقابلك ، تعمل معه خيراً . ليس المطلوب منك أنك تبحث ما هي الخيرات التي أخذتها أنت ؟ بل تسأل ما هي الخيرات التي أعطيتها لغيرك ؟

فلان قابلني . ما هي المنفعة التي أعطيتها له ؟ هل تحدثت معه حتى مل من حديثي ؟ أم أعثرته بكلام عن سيرة الناس ؟ فلان قعدت معه . وفضلت أمسك سيرة وملأت أذنيه بالخطايا . ما هو الخير الذي عملاته مع كل أحد ؟ هناك إنسان تعطيه كلمة منفعة ، وإنسان تعطية قدوة صالحة . وإنسان تعطية بركة – مساعدة – ابتسامة – كلمة حلوة – محبة – معونة في أي شئ – تنقذه من مشكلة – تعطي له نصيحة – تريح نفسيته – تعزية .

اعمل خيراً . ينبغي أن تجول تصنع خيراً . كما كان سيدك . هذا هو المفروض فيك ، حتى إذا قلت " فلنشكر صانع الخيرات " تكون إبناً يشابه أباه في هذه الصفة . أريد أن يكون هذا تدريباً ننفذه في الأسبوع المقبل : كيف نكون صانعين للخيرات ، في كل يوم يمر بنا ، ومع كل أحد يلتقي بنا . بحيث لو قابلك أحد ، ولم تصنع معه خيراً ، توبخ ذاتك على تقصيرك .
أما إذا كنت يا أخي لا تستطيع أن تصنع خيراً ، فعلي القليل قف في مكانك ، ولا تصنع شراً بأحد .
" فلنشكر صانع الخيرات الرحوم الله " . لذلك مفروض أنك تكون رحوماً . طوبى للرحماء ، فإنهم يرحمون . ولما تكون حنوناً على الناس ، يكون الله حنوناً عليك ، فالكتاب المقدس يقول " بالكيل الذي به تكيلون ، يكال لكم ويزاد . فإذا كنت أنت تكيل للناس بالرحمة ، ربنا يكيل لك بالرحمة ، ويزيدها . وإذا كنت تعامل الناس بالقسوة تأخذ قسوة وأكثر . بالكيل الذي به تكيلون يكال لكم ويزداد .
إذن كن طيباً مع كل أحد . وزع حنانك محبتك ، على كل أحد ، اجعل كل أحد يباركك ، وكل أحد يحبك ، وكل أحد يشعر أن لك قلباً واسعاً يستطيع أن يسكن فيه ويستريح .

الله أبا ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح

الله :

نحن نشكر صانع الخيرات الرحوم . نشكره أنه هو الله أبو ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح . شكرنا له باعتباره أنه هو الله نتذكر فيه أن الله هو خالق كل شئ ، وكل شئ في يده . كون أن الله كامل القدرة ، كامل الإمكانية ، في إمكانه أن يعمل كل ما يريد ، هذا يجعلنا نشكره على يده القوية في حياتنا ، كإله . نشكره لأنه هو الذي خلقنا ، وهو الذي يعرف احتياجاتنا ، الله يعرف أننا نحتاج إلى هذه كلها قبل أن نطلب ودون أن نطلب لأنه هو الله .

أبا ربنا ومخلصنا يسوع المسيح

في قولنا هذا ، نتذكر أن الله الذي نصلي له ، هو محب للبشر جداً ، لدرجة أنه بذل إبنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية ، فنقول له نشكرك يا الله لأنك أنت أبو ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح . نشكرك لأنك أبو الحنان ، وأبو الفداء ، وأبو المسيح إلهنا الذي خلصنا بدمه .
مجرد أننا نتذكر كلمة المسيح إلهنا ومخلصنا ، يجعلنا نمتلئ بالشكر ،؟ لأن اسمه يذكرنا بالخلاص ، بالفداء ، يذكرنا أن الله أخلي ذاته ، وأخذ شكل العبد ، وصار في الهيئة كإنسان ، لكي يخلصنا جميعاً . ونذكر الخلاص العظيم الذي تعجب منه الرسول قائلاً : " فكيف ننجو نحن إن أهملنا خلاصاً هذا مقداره " (عب٢ : ٣) نقول له نشكرك يا الله أبو ربنا ولهنا ومخلصنا يسوع المسيح ، لأنك أحببتنا حتى المنتهي . فإذا كان حبك وصل لدرجة أنك بذلت إبنك عنا ، فكم بالأولي الأمور التافهة التي نطلبها ؟

لماذا نشكر ؟!

لأنه سترنا

نشكره أولاً لأنه سترنا . ما معنى أنه سترنا ؟ أى أنه لم يفضحنا ، و لم يكشفنا أمام النـــاس ، لـــم يظهر عيوبنا أمام كل أحد . هنا نبدأ معترفين أننا خطاه نحتاج إلى ستر .
إن الناس لو عرفوا شيئاً بسيطاً عن عيوبنا ، لاحتقرونا و أتعبونا و سخروا بنا ٠ فكم بالأولى لـــو عرف الناس جميع أفكارنا ، و جميع تدابيرنا الخفية ، و جميع شهواتنا و خطايانا ، التى نعملهـــا و لا يعرف بها أحد !!
أحياناً يرتكب إنسان خطأ ، و يخاف جداً أن يعرفه شخص آخر ، و يخجل من ذلك إلى أبعد حـــد . و يفكر يا ترى هل عرفت فلان أم لم يعرف ؟ و إن كان الخبر لم يصل له يقول : " اشكرك يا رب لأنك سترت هذه الغلطة ، و لم تجعلها مكشوفة " .
فكم بالأولى الله الذى سترنا فى كل شئ . هو يرى كل عيوبنا ، و يصمت و يحتملنـــا . أم النـــاس فإنهم لو عرفوا عيوبنا لا يرحمونا . حقاً " أقع فى يد الله و لا أقع فى يد إنســـان ، لأن مـــراحم الله واسعة " (٢صم٢٤:١٤) ٠
الله يرى كل العيوب ، مع أنه قدوس ، لا تتفق الخطية مع طبيعته . و مع ذلك فهذا القدوس الذى لا حدود لقداسته يرى كل الخطايا ، و يسكب . لكن الإنسان الخاطئ – الذى يقع هو أيضاً فى الخطيئة – لو رأى خطايا الناس ، لا يسكت . و لو رأى و لو حتى ١/١٠٠٠ من خطايانا لا يرحم !
لذلك نحن نشكر الله لأنه سترنا " ليس خفى إلا و يعرف و لا مكتوم إلا و يستعلن " (متى١٠:٢٦) .
و مع ذلك لم يشأ الله أن يعرف الناس بخطايانا ، و لا أعملها للآخرين ، و مازال يستره .
حتى فى خطايانا التى نعترف بها ، من حنو الله العظيم ، قال إن الاعتراف بالخطايا يكون سراً على شخص واحد فقط ، و هذا الشخص مقيد بقوانين كنسية لا تسمح له أن يقول حرفاً منها حتـــى لـــو ذبحوه لا يبوح به . ما أعجبك يارب . إلى هذه الدرجة تخبئ خطايانا و تحجبها و تسترها ؟!
و كأنه يقول : حينما تعترفون بخطاياكم ، نلقى عليها ستراً فلا تظهر . و أنا قابل هـــذا الإعتـــراف البسيط الذى يعرفه شخص واحد لذلك نحن نشكره لأنه سترنا .
إنه يعرف أننا لا نحتمل الانكشاف و الفضائح ، فسترنا . سترنا أمام الأعداء الذين يشـــمتون بنـــا ، سترنا و نحن نكسر وصاياه و نجدف عليه .
عندما نتذكر هذا ، و نشكر الله على الستر و التغطية ، ينبغى أن يجول بفكرنا ما نكشفه من خطايـــا الناس ...
و كيف أننا نكشف و نعلن خطايا أخوتنا و خطايا كل أحد !! الكتاب المقدس يقول " الكيل الذى بـــه تكيلون ، يكال لكم و يزداد " (مر٤:٢٤) . إذا كنت تريد أن الله يسترك ، خبئ أنت أيضاً خطايا أخيك الإنسان . الله يستر و هو قدوس ، أفلا يليق أن تستر خطايا ؟أخيك و أنت خاطئ مثله ؟ لأنـــك لـــو كشفت خطايا الآخرين تكون فى خطر أن يكشف الله خطاياك . و المثل يقول :
" من كان بيته من زجاج لا يقذف الناس بالحجارة " فنحن ؟أناس كلنا عيوب ، و ربنا يسترها عـــن أعين الناس ، فلنشكره على ذلك . و بدورنا نحن أيضاً يجب أن نستر على خطايا النـــاس . يوحنـــا ذهبى الفم يقول " أن كنت لا تستطيع أن تأخذ خطيئة غيرك و تنسبها إلى نفسك ، و تحتمل الـــذنب بالنيابة عنه ، و تضحى بذاتك من أجل خطيته ، فعلى الأقل اصمت و لا تكشف خطايا الناس " .
" إن كنت لا تستطيع أن تسد فم الذى يتكلم على أخيه بالسوء ، فعلى الأقل سد فمك أنت، و لا تتكلم على أخيك بالشر " ...
يقول المزمور " يارب من يسكن فى مسكنك أو من يصعد إلى جبل قدسك إلا الســـالك بـــلا عيـــب ، الفاعل البر ، الذى يتكلم بالحق فى قلبه ، و لا يغش بلسانه ، و لا يفعل بقريبه سوءاً ، و لا يقبـــل

عاراً على جيرانه . " (مز١٥) . إذن مجرد قبول العار على جيرانه ، مجرد سماع كلمة اساءة عليهم ، أمر ردئ . فإذا فعل ذلك أحد أمامك ، قل له " نشكر الله لأنه سترنا ... فمثلما سترنا ، يجب علينا نحن أن نستر الناس الآخرين " .
آدم حاول أن يستر نفسه بأوراق التين و لم تنفع . لم تستطع أوراق التين و لا أغصان الشجر أن تخفيه . ظل عرياناً أختبأت " . إنك لم تعرف أن تستر نفسك يا آدم ، و لا حواء أيضاً ... أعرف إذن أن الله هو الذى يسترنا . نشكره لأنه سترنا .
الله عجيب بشكل لا يوصف ، نحن نعتدى عليه و نكسر وصاياه ، و هو يخبئ و يستر ! أما نحن فدائماً نشتكى و نتذمر ، و فى الشكوى و التذمر نكشف خطايا الناس و عيوبهم و ضعفاتهم ، و لا نحتمل ...
شخص مثل أيوب الصديق ، قطعاً كانت له ضعفاته و أخطاؤه ، لأن " الجميع زاغوا و فسدوا و أعوزهم مجد الله ، ، ليس من يعمل صلاحاً ليس ولا واحد " (مز١٤) . كان شيطان المجد الباطل يزحف قليلاً قليلاً إلى قلب أيوب . و مع ذلك لما وقف الشيطان أمام الله ، قال له الرب " هل جعلت قلبك على عبدى أيوب . رجل كامل و مستقيم و يفعل الخير و يحيد عن الشر و ليس مثله " (أى١:٨) .
إلى هذه الدرجة ؟ أنت تعلم كل شئ ، تعرف المجد الباطل الذى يزحف إلى قلب أيوب ، و عارف أنه " بار فى عينى نفسه " (أى(أى٣٢:١) و عارف أن قلبه منتفخ بالغنى و الثروة و البنين و القوة المحيطة به (أى٢٩) . و مع ذلك تقول عبدى أيوب ليس مثله فى الأرض ، رجل كامل و مستقيم ، و يفعل الخير و يتقى الله و يحيد عن الشر ؟! ما أرحمك يارب كم تستر كثرة من الخطايا ؟!
و بعد ذلك نرى أيوب قد شق ثيابه و جز شعره ، و قال " الرب أعطى الرب أخذ " . و الرب لم يؤاخذه على جز الشعر و شق الثياب . و فى أول مقابلة له مع الشيطان بعد ذلك . قال له " هل وضعت قلبك على عبدى أيوب لأنه ليس مثله فى الأرض ، رجل كامل و مستقيم " (أى٢:٣) .
و نحن نسأل أيمكن أن يكون كاملاً و قد جز شعر رأسه ؟ و يجيب الرب نستر و نغطى .
هذا هو أسلوب الله ، أما نحن فإذا عرفنا غلطة عن واحد ، ننشرها فى كل مكان ... ننسى الله الذى سترنا ، و نخبر حتى تراب الأرض بما حدث ، و كلما نقابل أحد نقول له : أم تسمع ؟ أم لم تعرف . ألم تدر ما جرى ؟ لم تر ما حدث ؟ و ما أكثر الكلام ... و بعد هذا الكلام كله ، نقول فلنشكر صانع الخيرات لأنه سترنا !!
عجباً مادام قد ستر ، أستر أنت أيضاً . نحن نريد أن يكون الستر لنا فقط . نكون نحن مستورين ، و يكون غيرنا مكشوفين . الستر لنا نحن فقط ، أين الآية التى تقول : " تحب قريبك كنفسك " . أنت لا تحب أن نفسك تبقى مكشوفة . فكذلك لا يصح أن يكون مكشوفاً هو أيضاً .
فلنشكر صانع الخيرات لأنه سترنا .
إذا كنت يا أخى بدون عيوب تحتاج إلى ستر ، يمكن يكون لك حق أن تكشف غيرك . أما إذا كنت أنت نفسك تحتاج إلى تتغطى و تستتر ، فعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به ...
عملية الغفران هى عملية تغطية ، عملية ستر ، الله تأخذ خطيتنا ، و يلقى ستراً عليها ، و يغطى عليها . و هذه هى الكفارة أى التغطية .
و الكافر فى اللغة العربية هو الشخص الذى يغطى نعمة الله فلا تظهر . و كانوا فى الأدب العربى القديم قبل الإسلام يطلقون كلمة " كافر " على الفلاح الذى يضع البذرة فى الأرض و يغطيها . فلما أتى الإسلام حددها فى معناها الحالى . حتى أن كلمة cover بالإنجليزية تعطى نفس المعنى ، أى يغطى . و كون أن الله يكفر عن خطايانا ، معناها أن الله يضع على خطيتنا دمه الفادى ، فتتغطى بالدم و لا تظهر لأحد ، و لا حتى أمام العدل الإلهى ...

و أعاننا

فلنشكر صانع الخيرات الرحوم الله ... لأنه سترنا و أعاننا : و لولا معونته ، ما كنا نستطيع أن نتقدم خطوة واحدة . نحن كثيراً ما ننسى معونة الله . ننسى كثيراً عمل النعمة فينا . ننسى أن الله أعاننا لأننا ضعفاء ، و لا نستطيع أن نعمل شيئاً " لأنكم بدونى لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً " (يو١٥:٥) ، هكذا قال السيد المسيح . فنحن نشكر الله لأنه سترنا . من جهة ، ستر على خطايانا و أخفاها . و من جهة أخرى ، أمسك بأيدينا و أقامنا ، و جعلنا نعمل خيراً .

أعمالنا : إما شر ، و إما خير . بالنسبة للشر ، نقول " سترنا " و بالنسبة للخير ، نقول " أعاننا " ، لأنه لولا أنه أعاننا ما كنا نستطيع أن نعمل أى عمل خير .

كل عمل طيب تعمله ، يدل على أن هناك معونة من النعمة أمسكت بيدك ، لولا هذه المعونة ، ما كنت تستطيع أن تعمل شيئاً . و الله يجب أن يعيننا ، و يكره أن نعتمد على معونة بشرية " ملعون الرجل الذى يتكل على الإنسان ، و يجعل البشر ذراعه (أر١٧:٥) . – الله هو الوحيد الذى من عنده العون و المساعدة – هو الذى أعاننا .

حاول أن تدخل كلمة " أعاننا " فى كل عمل من أعمالك ، لكي ترجع الفضل لله فى كل شئ . و إن استطعت فى يوم أم تعمل أى عمل من أعمال العبادة ، قدرت أن تصلى ، أو تتأمل ، أو تقرأ ، أو تضرب مطانيات ، أو تصوم ... قل : اشكر الله لأنه أعاننا

لكن الإنسان الذى ينسى أو ينكر معونة الله ، هذا يقع فى الكبرياء ، و يظن أنه بقوته و ذراعه استطاع أن يعمل شيئاً .

تلميذ ينجح . تقول له " مبروك " يقول لك إننى ذاكرت مذاكرة جبارة ، و ينسى كلمة أعاننا ، و بذلك يقع فى المجد الباطل . إذا ذكرت معونة الله ، يمكن أن يديمها عليك باستمرار .

قال مار اسحق " لا توجد موهبة بلا زيادة إلا التى بلا شكر " .

إذا لم تشكر الله على معونته ، يرفع معونته عنك ، لكي تشعر بضعفك . و لما تشعر بضعفك ، تدرك أنك لما كنت قائماً على قدميك ، كانت معونة من الله . فلنشكر صانع الخيرات ، لأنه أعاننا و عرفنا طريقة ، أعاننا و كشف لنا إرادته ، و أعاننا و أعطانا أن نعبده ، و أعطانا أن نعمل شيئاً به ، فى شركة روحه القدوس . . . فلنشكر صانع الخيرات الرحوم الله ... لأنه سترنا و أعاننا و حفظنا .

و حفظنا

من جهة خطايانا ، نقول نشكر الله لأنه سترنا . و من جهة حياة البر التى نسلك فيها أمام الله ، نقول أعاننا . و بعد ذلك نقول " و حفظنا " لأننا نعيش فى حفظ الله " إسم الرب برج حصين ، يركض إليه الصديق و يتمنع " (أم١٨:١٠) .

فالله حفظنا . و نحن لا نستطيع أن نحفظ أنفسنا . " حافظ الأطفال هو الرب " (مز١١٤:٥) . و المقصود بالأطفال هم الناس الذين يسلكون كأطفال الله . أنت تقدر أن تمشى وحدك فى ميدان واسع . و تستطيع أن تتحفظ من السيارات . لكن الطفل الصغير لا يستطيع أن يمشى وحده ، و تجده يمسك بيد والده ، و يشعر أنه لا يقدر أن يمر إلا و هو فى يد أبيه ...

كذلك نحن فى حياتنا على الأرض بهذا الشكل : إن سلكنا كأطفال ، نشعر أنه بدون الله ليست لدينا القوة التى نحفظ بها أنفسنا . و لكن الرب هو الذى يحفظنا .

الله هو الذى يحفظ الناس ، و هو الذى يرعاهم ، لأنه هو الراعى الصالح . الخراف تكون موجودة ، و غير مسؤلة عن حماية نفسها . فنحن نقول نشكر الله لأنه حفظنا .

و لكن إن كنا نحن لم نقع فى الخطية ، فلنشكر الله لأنه حفظنا . هو الذى يحفظنا ، و منع عنا الشر . و هو الذ منعنا عن أن نقع فى التجربة . أو أثناء الخطية أعطانا قوة من الداخل ، أو جعل موانع من الخارج لم تسمح بأن نخطئ ...
خطاياك على نوعين : خطية وقعت فيها فعلاً ، و تشكر الله لأنه سترك ، و خطية لم تقع فيها بعد ، و تشكر الله لأنه سترك ، و خطية لم تقع فيها بعد ، و تشكر الله لأنه حفظك منها و من الوقوع فيها. فإذا كنت أنت سائراً فى بر أمام الله ، لا تفتخر و إنما قل نشكر الله لأنه حفظنا . لولا أن الله حافظ علينا سقطوا . الذين سقطوا لم يكونوا أضعف منا . هناك جبابرة قد سقطوا . و الخطية " طرحت كثيرين جرحى و كل قتلاها أقوياء " (أم٧:٢٦) .

و قبلنا إليه

نشكر الله لأنه حفظنا و قبلنا إليه . كلمة " قبلنا إليه " عبارة لطيفة جداً . لأنه لما نخطئ فى حق الناس يرفضوننا . إن تكلم واحد منا عن غيره كلمة غير لائقة يقول " لا أريد أن أرى وجه هذا الإنسان مرة أخرى " و حتى أن جاء ذلك الأخ ليعتذر إليه قد يرفض مقابلته .
و نحن نخطئ أمام الله خطايا عديدة . نتحدى سلطانه ، و نجدف عليه ، و نكسر وصاياه ، و ننجس أقداسه و هيكله . ثم نقف أمامه و نقول له " أبانا " ! أهذه تصرفات أولاد الله ؟
و لكن نشكر الله لأنه قبلنا إليه ، على الرغم من كل تعدياتنا ، على الرغم من كل سقطاتنا و نجاستنا . إن الله يقبلنا إليه و يقول " من يقبل إلى لا أخرجه خارجاً " (يو٦:٣٧) .
ربنا طويل الأناة ، باستمرار فاتح ذراعيه " لا يخاصم إلى الأبد و لا يحقد إلى الدهر " (مز١٠٣) نشكره لأنه قبلنا إليه . مجرد وقوفنا أمام الله ، مجرد أن الله يرضى أن يسمع صلواتنا ، مجرد أن الله يدخلنا إلى بيته أو هيكله ، مجرد أن الله لا ينزع روحه منا ، كل هذه الأشياء نشكره عليها لأنه قبلنا إليه .
أنت يارب طيب . مهما أخطأنا فى حقك ، لا تزال تقبلنا إليك . الناس لا يقبلوننا مع أنهم أشرار مثلنا . لكن أنت القدوس الكلى القداسة تقبلنا إليك . أنت بإستمرار فاتح ذراعيك .
أشكر الله يا أخى من أجل هذا ، كلما تكثر خطيتك أمامك ، كلما تشعر أن خطيتك بشعة فى عينيك ، و على الرغم من كل ذلك ترى الله لا يزال يحتفظ بك كإبن .
إنه قال عن الابن الضال الذى ترك بيته و بدد أمواله " ابنى هذا كان ميتاً فعاش ، و كان ضالاً فوجد " (لو١٥:٣٢) . ما هذا يا رب حتى و هو ميت و ضال تعتبره إبنك ؟! ... " نعم أعتبره ابنى . بل أن الله لما رأى ذلك الإبن من بعيد تحنن و ركض و عانقه و قبله . كل هذا يدعونا أن نشكر الله لأنه يقبلنا إليه . لم يصنع معنا كحسب خطايانا ، و لم يجازنا حسب أثامنا . لأنه مثل ارتفاع السموات فوق الأرض ، قويت رحمته على خائفيه . كبعد المشرق عن المغرب ، أبعد عنا معاصينا . كما يتراءف الأب على البنين يتراءف الرب على خائفيه " هكذا قال داود (مز١٠٣:١٠-١٣) . فنحن نشكر الله لأنه قبلنا إليه .
و لعل أحد يسأل هل كل خطية لها مغفرة ؟ فى إحدى المرات سأل أخ أحد القديسين عن هذا الموضوع فقال له : إن الله يأمر أن تغفر لأخيك إذا أخطأ إليك فى اليوم ٧مرات سبعين مرة . فإن كنت أنا الإنسان البشرى ممكن أن أغفر لأخى ٧×٧٠ فى اليوم الواحد ، فكم بالأولى الله الذى لا تنتهى مراحمه ؟!
إن الله حينما يقبلنا إليه إنما يجعلنا نخجل أمام أنفسنا ، لأن ربنا لا يكافئ الشر بالشر ، و إنما يعامل الخطاة بتحنن ، و يعاملنا بشفقة ، لا يصنع معنا حسب خطايانا .
فلنشكر صانع الخيرات لأنه سترنا و أعاننا و حفظنا و قبلنا إليه و شفق علينا و عضدنا .

و شفق علينا و عضدنا

الله يشفق علينا لأنه يعرف ضعفاتنا ، يعرف طبيعتنا الطينية التى نحن فيها . الله يأخذ موقف الشفقة ، أما نحن فباستمرار نقف موقف القضاة .
كل واحد فينا يهوى أن يلبس رداء القضاة و يحكم : فلان قد أصاب ، و فلان قد أخطأ ، فلان هذا يستحق ، بينما ذاك لا يستحق . لكن ربنا يعامل بالحنو و الشفقة و الطيبة .
هذه الأشياء كلها تجعلنا نحن أيضاً مجبرين أن نعامل بالمثل ، كما قبلنا الله إليه ، ينبغى أن نقبل الناس ، و كما أشفق علينا ، ينبغى أن نشفق على الناس . و كما سترنا ينبغى أن نستر الناس و هكذا فى باقى الطلبات . و نشكره أيضاً لأنه عضدنا ، أى قوانا و أيدنا فى كل ما نفعله . و نشكره لأنه أتى بنا إلى هذه الساعة .

و أتى بنا إلى هذه الساعة

لما تشكر ربنا لأنه أتى بك إلى هذه الساعة ، اشعر أن حياتك كان من الممكن أن تنتهى فى أى لحظة . حياتك منحة تتجدد يوماً بيوم ، و ساعة بساعة ، و ثانية بثانية . أشكر ربنا لأنه أتى بك إلى هذه الساعة ، لو كنت مت و أنت ترتكب خطية معينة ترى أى مصير كان سيدركك ؟! و ما أكثر الأمثلة على الميتات الفجائية .
نشكر الله لأنه أتى بنا إلى هذه الساعة – مد فى عمرنا حتى الآن . لم يأخذنا فى خطيتنا . لم يجعل الأرض وقتها تفتح فاها و تبتلعنا ، كما فعل مع قورح و داثان و ابيرام . لم يجعل النار تنزل من السماء و تحرقنا كما فعل مع سادوم . هل تظنوا أن خطايا هؤلاء الناس أصعب من خطايانا ؟ من قال ذلك ؟ و مع ذلك فإن الله لم يعاملنا حسب خطايانا – لم يعاقبنا كمل عاقب الباقين ، و إنما أتى بنا إلى هذه الساعة .
و ليس ذلك فقط ، بل أتى بنا إلى ساعة الصلاة هذه ، إلى ساعة التأمل هذه ، إلى ساعة الشكر هذه . و أوقفنا أمامه نصلى و نشكر و نتضرع إليه . ما أكثر فضلك يا رب . لو كنت أخذتنى فى الساعة الفلانية ، حينما كنت أرتكب الطية الفلانية كنت ضعت . لكن أنت مددت فى عمرى ، و أتيت بى إلى هذه الساعة ، فلتكن هذه الساعة مقدسة و مباركة لك . فلتكن هذه الساعة بداية حياة جديدة أبدؤها معك . شكر الله فى الماضى ، يشجعنا من جهة حياة المستقبل و نحن نشكر الله لأنه أتى بنا إلى هذه الساعة ، بعد ذلك نقول :

هو أيضاً فلنسأله أن يحفظنا فى هذا اليوم المقدس

ستر الله علينا فى القديم ، يشجعنا أن نطلب منه الستر فى المستقبل . صحيح أن ربنا كان معنا فى القديم . و لكن إذا تخلى عنا الآن ، ضعنا . ماذا تفيد حياتنا القديمة مهما كانت مملوءة بالبر و القداسة ، و التعفف ، إن كنا اليوم نسلك فى طريق الخطية ؟! المهم هو حاضرنا و مستقبلنا لذلك نقول : هو أيضاً فلنسأله أن يحفظنا فى هذا اليوم المقدس و كل أيام حياتنا .
كثيرون بدأوا حياتهم بداية مقدسة ، و أنتهوا إلى نهاية شريرة . بولس يقول : " لأن كثيرين يسيرون ممن كنت أذكرهم لكم مراراً و الآن أذكرهم أيضاً باكياً و هم أعداء صليب المسيح الذين

نهايتهم الهلاك الذين نهايتهم الهلاك الذين إلههم بطونهم و مجدهم فى خزيهم الذين يفتكرون فى الأرضيات " (فى٣:١٨-١٩) . و كثيرون بدأوا بالروح و كلموا بالجسد (غل٣:٣) .
سليمان الحكيم بدأ حياته بداية طيبة . و لكن فى آخر أيامه بخر للأصنام (١مل١١) ، مع أنه مملوء حكمة ، و قد أعطى حكمة و فهماً أكثر من جميع الناس ! لذلك نطلب من الله – كما حافظ علينا فى القديم – أن يحافظ علينا أيضاً فى المستقبل .
و هو أيضاً فلنسأله أن يحفظنا فى هذا اليوم المقدس . لماذا نقول اليوم المقدس ؟ لأن كل يوم من أيام حياتنا هو يوم مقدس . حياتنا كلها هى حياة مقدسة يملكها الله . لأننا أشترينا بثمن (١كو٦:٢٠) ، إننا هياكل للروح القدس ، و الروح القدس ساكن فينا (١كو٣:١٦) . كل يوم من أيام حياتنا هو يوم مقدس ، لأنه ملك الله . فلنسأله أن يحفظنا فى هذا اليوم المقدس و كل أيام حياتنا .

و كل أيام حياتنا

لا نطلب أن يحفظنا الله فى يوم معين ، و إنما كل الأيام ، فلنطلب أن يحفظنا الله كل أيام حياتنا ، لأن يوماً واحداً يمكن أن يضيع الحياة كلها خطية يوم واحد يمكن أن تتلف الحياة كلها . كل ما تبنيه طول عمرك ، يمكن أن تهدمه فى يوم واحد ، فيضيع تعبك كله كأن لم يكن . لذلك نطلب من الله أ يحفظنا يوماً بيوم ، لأننا بدون حفظه لنا نشابه الهابطين فى الجب .
نطلب من الله أن يحفظنا فى هذا اليوم ، لأننا لا نعرف ما هى التجارب التى تصيبنا منه ، و لا هى الشرور و العثرات التى ستصادفنا ، و لا من هم الناس الأشرار الذين سنقابلهم ، و لا ما هى الخطية التى طرحت كثيرين جرحى و كل قتلاها أقوياء (أم٧:٢٦) . المسألة تحتاج إلى حفظ من الله فى هذا اليوم المقدس و كل أيام حياتنا حتى تنتهى غربتنا بسلام .
فى سيرة القديس مكاريوس نجد أنه كان حريصاً حتى آخر لحظة ، لدرجة أنه لما فارقت روحه جسده طاردته الشياطين قائلة " قد خلصت يا مقارة " . فقال " لا أعرف بعد " كان خائفاً من أن روحه يسقطها شيطان الكبرياء و هى خارج الجسد . و لكنه – لما وصل إلى داخل الفردوس – حينئذ استطاع أن يقول " إننى الآن برحمة الله قد خلصت " ! فلنسأل إذن أن يحفظنا كل أيام حياتنا بكل سلام الضابط الكل الرب إلهنا .

بكل سلام

ليتنا نترجم الكلمة " بكل سلام " .
بدلاً من " بكل سلامة " فهذه هى الترجمة السليمة . نطلب أن نعيش فى سلام : من جهة علاقتنا بأنفسنا ، و علاقتنا بالناس ، و علاقتنا بالله . أحفظنا فى هذا اليوم المقدس فى سلام . أى سلام مع أنفسنا ، غير منقسمين على ذواتنا . و فى سلام الناس ، لسنا فى غضب و لا حقد و لا خصومة مع أحد . و سلام مع الله .

الضابط الكل الرب إلهنا

إنه ضابط الكل ، مسئول عن الكل . هو الذى خلقنا و هو الذى يحفظنا .
بعد هذا السلام ماذا يجب أن نقول ؟ نوجه طلباتنا و نقول " نشكرك يارب " و نكرر نفس العبارات .
و فى الأول دعوة إلى الشكر : " فلنشكر " . ثم نقول " نشكرك " أى نقوم بواجب الشكر فعلاً . و على أى شئ نشكر ؟ نشكر :

على كل حال و من أجل كل حال و فى كل حال

ينبغى أن يكون الشكر عادة لنا ، نقابل بها أعمال الله كلها . ليس هناك أعمال نشكر الله عليها ، و أعمال نشكر الله عليها ، و أعمال نتذمر منها ، لا ، لابد أن نشكره على كل شئ ، ليست هناك أمور نشكر الله عليها ، و أمور نتعب منها و نبكى . لا ، الإنسان الروحى يشكر على كل حال لأن " كل الأشياء تعمل معاً للخير للذين يحبون الله " (رو٨:٢٨) .
الشخص الذى يحب الله ، يجد فى كل شئ خيراً و بركة ، و لعل البعض يسأل : و ماذا عن المصائب؟
نجيب : كان ممكناً أن تكون المصيبة أشد و أصعب . و نشكر الله أنها وصلت إلى هذا الحد فقط !
مثال ذلك :
لنفرض أن شخصاً استقل عربته ، و لم تحدث له حوادث ، يشكر الله طبعاً . فإن حدثت له حادثة يشكره أيضاً : فالحادثة التى تسببت فى رضوض ، كان يمكن أن ينتج عنها كسر أو بتر ، ألا يستحق هذا شكراً ؟! و الحادثة التى كانت نتيجتها البتر ، كان ممكناً أن تتسبب فى وفاة . فلنشكر الله على حفظه للحياة .
و حتى إن مات ، يشكر الله الذى أطلقه من هذا العالم ، ليتمتع بالأبدية السعيدة . و لم يجعل نهاية حياته بمرض متعب ، يستمر عذاباته مدى زمنياً طويلاً بلا شفاء ...
إننا نشكر ، عندما نقارن حالنا بما هو أسوأ .
أما إن قارناه بما هو أفضل ، فقد نتذمر ... !
أيضاً من مشاكلنا فى عدم الشكر أمران :
أ- أننا نقسم الأمور إلى جيد و ردئ . فنتعب من الأمور الرديئة . و قد لا نشكر ...
ب- إننا نقسم أيضاً الأمور الجيدة إلى كبيرة و بسيطة . فنشكر على الخير الكبير ، و لا نشكر على الخير الذى نحسبه بسيطاً !! بينما الكل يحتاج إلى شكر .
أليس مخجلاً أن نحسب بعض الخيرات بسيطة لا تستحق الشكر ؟!
مثال ذلك : نحن جالسون الآن فى هذا الاجتماع ، و النور الكهربائى مضئ بلا إشكال . هل شكرنا الله على هذا ؟! ألا نذكر أنه فى أحد الأيام أنقطع النور ، و تعطل الميكروفون ، و استمر انقطاع التيار الكهربائى حتى السابعة إلا ربع ، و كاد الاجتماع يفشل ... ثم لما عاد التيار الكهربائى شكرنا الله ...
أترانا نشكر على وجود النور حالياً ؟ أم أننا لا نشكر إلا على وجود النور حالياً ؟ أم أننا لا نشكر إلا إذا أنقطع التيار و عاد ؟!
لا شك أن هناك أشياء كثيرة لا نشكر الله عليها ، و ذلك لأننا نظن أنها لا تستحق الشكر !

مجرد أنك تسير يا أخى على قدميك أمر يستحق الشكر ، لأن هناك أشخاصاً لا يتمكنون من السير على أقدامهم ... مجرد أنك جالس ، أمر يستحق الشكر ، لأنه يوجد أناس نائمون الآن على فراش المرض ...

حقاً إن الصحة تاج على رؤوس الأصحاء ، لا يشعر به إلا المرضى . و الأصحاء لا يشكرون !!

أنت يا رب تستحق الشكر على كل شئ : على النعم التى نراها ، و النعم التى لا نشعر بها . تستحق الشكر على كل حال ... لأنك سترتنا و أعنتنا و حفظتنا ، و قبلتنا إليك ، و أشفقت علينا و عاضدتنا ، و أتيت بنا إلى هذه الساعة .

من أجل هذا :

نسأل و نطلب من صلاحك يا محب البشر

من أجل أنك عملت معنا كل هذا ، نسأل و نطلب ...

إن نعمك القديمة تشجعنا على أن نطلب شيئاً جديداً .

حنانك القديم شجعنا أن نقترب إليك ... من أجل أنك طيب و حنون و شفوق ، و من أجل أنك تحافظ علينا ، و من أجل الماضى كله ، نحن نسأل و نطلب من صلاحك يا محب البشر ...

كل تصرفاتك معنا تدل على أنك محب البشر ، بل أنك أنت نفسك المحبة . و الله محبة . نحن نطلب من صلاحك يا محب البشر ، ليس لأننا نستحق ... كلا ، بل أننا نطلب من أجل أنك محب و صالح . نطلب أن نكمل هذا اليوم المقدس و كل أيام حياتنا فى مخافتك .

أمنحنا أن نكمل هذا اليوم المقدس

الإنسان و هو يصلى هذه الصلاة ، يشعر أن كل يوم يمر عليه عبارة عن نعمة من الله أعطيت له . نحن لا نستطيع بقوتنا و لا بإرادتنا أن نكمل يوماً واحداً فى مخافة الله ، إن لم يكن هذا عملاً من أعمال نعمة الله القدوس . لأنه قال " بدونى لا تقدرون أن تعملوا شيئاً " (يو١٥:٥) .

فنحن نقول له : يا رب أعطنا يوماً من عندك ، يوماً صالحاً مقدساً ، نكمله بعمل روحك القدوس فينا . و طبعاً روح الله لا يعمل فى الإنسان الذى لا يريد أن يعمل .

الله لا يرغمنا على المعيشة معه ، و إنما حياتنا كلها عبارة عن شركة مع الروح القدس . الروح القدس يشترك مع إرادتنا فى انقاذ أنفسنا من الهلاك .

لو أن الروح القدس تخلى عنا تخلى ، لا يمكن أن نخلص . و لو إرادتنا رفضت أن تعمل مع الروح القدس ، لا يمكن أيضاً أن نخلص . لأن الله لا يرغم إنساناً على السير فى طريقه .

" أمنحنا أن نكمل هذا اليوم المقدس " . لتكن هذه يا رب هبة منك ، منحة ، عطية مجانية من عندك ، أن نكمل اليوم فى مخافتك ، فيكون يوماً مقدساً ...

إننا نعتبر كل يوم من أيام حياتنا يوماً مقدساً .

لأن حياتنا كلها مقدسة للرب . ملك له لأنه اشتراها بدمه كل يوم من أيام حياتنا ، بل كل ساعة منها هى ساعة مقدسة . كل دقيقة ، كل لحظة فى حياتنا ، هى أيضاً مقدسة . لأن حياتنا ملك للرب الذى قدسها بدمه الطاهر . حياتنا ليست ملكاً لنا حتى نتصرف فيها كما نريد . إنها ملك للرب ، و الرب هو المتصرف فيها لا نحن .

لسنا نقول فقط " امنحنا أن نكمل هذا اليوم المقدس " بل أيضاً " و كل أيام حياتنا " .

و كل أيام حياتنا

ليس هذا اليوم فقط ... فمن الجائز أن نسلك اليوم حسناً ، و نخطئ غداً . و نهلك !! من يعرف .
أنت لا تعرف يا أخى حياتك كيف تنتهى ، فطالما أنت فى الدنيا ، لبد أن تكون محترساً و خائفاً .
كثيرون كانوا جبابرة فى الروح ، و لم يكملوا حسناً .
لذلك نحن نذكر القديسين الذين كملوا حياتهم فى الإيمان و نقول هكذا فى المجمع :

أى الذين كملوا فى الإيمان . أوعى تعتبر أنك النهاردة كويس ، و تقول أنا بقيت قديس . جايز بكره تفقد قداستك !و ما أدراك ؟! لذلك نحن نقول " أمنحنا أن نكمل هذا اليوم المقدس ،و كل أيام حياتنا " القديس يوحنا القصير . عندما كان يرى شخصاً يخطئ ، كان يبكى عليه و يقول " هذا الشخص أخطأ اليوم و قد يتوب ، و ربما أخطئ أنا غداً و لا أتوب " !!
ماذا أدرانا كيف تكون النهاية ... !
إننا نقرأ عن إثنين : أحدهما كان لصاً و الثانى تلميذاً من تلاميذ السيد المسيح .
اللص ذهب إلى الفردوس ، و تلميذ المسيح هلك و مات منتحراً !
من أجل هذا يجب أن نحترس إلى النهاية ، كما يقول الكتاب " أنظروا إلى نهاية سيرتهم و تمثلوا بإيمانهم " (عب١٣:٧) . و لا يصح أن نغتر بيوم صالح مر علينا .
هناك أشخاص إذا مر عليهم يوم صالح ، يضنون أنها درجة روحية قد صعدوا إليها ، و لن ينزلوا منها ثانيه .
فيقول الواحد منهم : إن الخطية الفلانية قد ابطلتها و انتهت من حياتى . من قال أنها إنتهت ؟ أليس من الجائز أنك ابطلتها اليوم ، و تحارب بها غداً ؟! أو أبطلتها هذه السنة ، و تسقط فيها فى السنة المقبلة . صل إذن أن يجعل الرب يومك هذا مقدساً ، و كل أيام حياتك أيضاً ...
احسب أيام حياتك ، باليوم . و اعرف و أنت تصلى هذا الجزء من صلاة الشكر ، إن كل يوم يمر عليك لن يرجع ، مهما بكيت عليه بدموع و ندمت . مهما بكيت عليه بدموع و مهما ندمت عليه بدموع . لا يمكن أن يرجع ثانية . إنه يوم من أيام حياتك قد ضاع و قبر فى الأبدية ، و لا يعود مرة أخرى . لذلك انقذ أيام حياتك ! انقذها باليوم .
إن الله يحسب حياتك باليوم ، فيقول " اذكر خالقك فى أيام شبابك " (جا١٢:١) . لا تجعل لا يوم من أيام حياتك يفلت . " امنحنا أن نكمل هذا اليوم المقدس و كل أيام حياتنا " ... لذلك نصلى و نقول : لا تسمح يا رب بأن يوماً واحداً من أيام حياتنا يكون عاطلاً عن النعمة ، أو أن يكون مقفراً من عمل الخير . أو أن يكون ملكاً للشيطان .
عندما تخرج روحك من جسدك أيها الأخ ، و يمسك بها الشيطان ، و يقول لها " تعالى نتفاهم من جهة أيام حياتك على الأرض : هل كانت ملكك أم ملكى ؟" ...
من يعرف ؟ ربما كانت كلها ملكاً له !! ربما يقول لك الشيطان : كل يوم من أيام حياتك كان ملكاً لى . هل حدث أن يوماً من أيامك لم أدخل فيها ؟ . هل مر عليك يوم بدون خطية و بدون طاعتى ؟!
كل يوم من أيامك دخلت فيه ، كما يدخل الخيط فى حبات المسبحة !!
يا للهول ! لذلك صل باستمرار وقل : امنحنا أن نكمل هذا اليوم المقدس ، و كل أيام حياتنا ...
البعض يظن أن الحكم على أيام حياتنا يكون بالميزان : توضع أيام الشر فى كفة ، و أيام الخير فى كفة . و يرى الله أيهما يرجح !! كلا ، فهذا لن يحدث .
فمن الجائز أن يوماً واحداً من حياتك ، يضيع الحياة كلها !!
هل كان أبونا آدم يخطئ كل يوم ؟! كلا ، كانت حياته فى الجنة كل بر و بساطة ، لا يعرف فيها شراً ... و كذلك كانت حياة أمنا حواء ... و لكنهما فى يوم واحد أكلا من الشجرة ،فانتهت كل سيرتهما فى الجنة ! كلها ضاعت !! ضيعها يوم واحد ، بل ربما ساعة واحدة ، و ربما دقيقة أو لحظة .

فنان عظيم يمسك لوحته و يبدأ أن يرسم عليها رسماً جميلاً جداً ... لوحة فنية رائعة ، أنفق شهراً فى ابداعها ... ثم فى لحظة انسكبت عليها زجاجة حبر . ألا تكون هذه اللحظة الواحدة قد أضاعت تعب الشهر كله ؟! ...
لذلك نحن نصلى و نقول : امنحنا أن نكمل هذا اليوم المقدس و كل أيام حياتنا بكل سلام مع مخافتك
أعطنا أن نكمل هذه الأيام بكل سلام :

بكل سلام

سلام بيننا و بين الله .
سلام بيننا و بين الناس .
سلام بيننا و بين أنفسنا .
سلام بين الجسد و الروح . لا يشتهى الواحد منهما ضد الآخر . امنحنا أن نكمل هذا اليوم المقدس و كل أيام حياتنا بكل سلام .

مع مخافتك

كلمة " مع مخافتك " . كلمة جميلة و لطيفة . لماذا ؟ لأن البعض حينما يبدأ حياته مع الله ... أحياناً ينسى مخافة الله وسط محبة ربنا . و يقول المحبة تطرد الخوف إلى خارج .
صحيح أن الرسول يقول " المحبة الكاملة تطرد الخوف إلى خارج " (١يو٤:١٨) . لكن من فينا وصل إلى المحبة الكاملة ؟! الذى وصل إلى المحبة الكاملة ، و صار العالم عنده مثل النفاية و استطاعت محبة الله فيه أن تحرق كل شهوة عالمية . مثل هذا لا يخاف .
أما نحن فلم نصل إلى درجة الكمال هذه ... لم نصل إلى المحبة الكاملة التى فيها نحب الله من كل القلب و الفكر و الإرادة ... مازال العالم له موضع فينا ، ولذلك نحن نخاف ... يقول الرسول " سيروا زمان غربتكم بخوف " (١بط١:١٧) . و أيضاً " تمموا خلاصكم بخوف و رعدة " (فى٢:١٢) . نخاف لأن " عدونا مثل أسد زائر يلتمس من يبتلعه " (١بط٥:٨) . نخاف لأن الخطية " طرحت كثيرين جرحى و كل قتلاها أقوياء " . نخاف لأن كثيرين بدأوا بالروح و كملوا بالجسد . نخاف لأننا لسنا أقوى من الجبابرة الذين سقطوا . لسنا أقوى من داود ، لسنا أحكم من سليمان . لسنا أقوى من ديماس الذى أحب العالم الحاضر (٢تى٤:١٠) . لسنا أقوى من الرسل و الأنبياء الذين سقطوا .
مين يعرف ؟ امنحنا أن نكمل هذا اليوم المقدس بكل سلام مع مخافتك . لتكن مخافة الله فى أعيننا باستمرار . أى ليكن الخوف نوعاً من أنواع الهيبة و التوقير لإلهنا الصالح ...
إن الذى لا يخاف ، يستكبر لذلك يقول الرسول " لا تستكبر بل خف " (رو١١:٢٢) . امنحنا يا رب أن نكمل كل أيام حياتنا فى مخافتك .
الإنسان الخائف الله لا يمكن أن يعمل خطية . قيل عن قاضى الظلم أنه شخص لا يخاف الله .
الإنسان الذى لا يخاف الله ، يستهتر و يسلك حسب هواه و لا يهتم ... لماذا نستطيع أن نرتكب الخطية أمام الناس ، و نخاف كلام الناس ، و نخاف أفكار الناس ، و نخاف فضيحة الناس ، أما الله فلا نخاف منه .
إن كل خطية نرتكبها ندل بها على أننا لا نخاف الله . الشخص الذى يخاف الله هو الشخص الذى لا يرتكب خطية مهما كانت فى السر ، مهما كان بعيداً عن أعين الناس . لأن الله موجود أمام عينيه ، فكيف يخطئ و يفعل هذا الشر العظيم أمام الله ؟!

لو تتبعتم كلمة الخائفين من الله ، تجدونها كثيرة فى الكتاب المقدس و بخاصة المزامير . مفروض أننا نخاف الشر ، نخاف الخطية و السقوط ، و نخاف ضعفنا لكن ليس الخوف خوف الجبناء ، و إنما المخافة التى تدفعنا فى أن نتمسك بالله بالأكثر . و نحتاط أكثر ، و نحترس أكثر . و نجاهد أكثر ليس خوفاً يدعو إلى اليأس و الجبن ، و أنما مخافة تدعوا إلى مزيد من الحيطة و الاحتراس و الجهاد و الصلاة . امنحنا أن نكمل هذا اليوم ... مع مخافتك ...
هنا خرج المصلى من الشكر إلى الطلب .
بدأ بالشكر ثم تحول إلى الطلب . و لما دخل فى الطلب طلب أولاً ملكوت الله و بره . امنحنا أنك نكمل هذا اليوم ... مع مخافتك . يطلب ملكوت الله ، يطلب أن يعيش عيشة طاهرة فى مخافة الله .
و حينما تردد هذه الطلبة فى صلاتك ، تذكر ما هى الأشياء التى فى حياتك تدنس هذا اليوم المقدس ؟ تذكرها و اعرضها أمام الله فى قولك " امنحنا أن نكمل هذا اليوم المقدس ... " كذلك قل نجنى من كذا و كذا . وضع مخافتك أمامى فى كل حين .
كل حسد و كل تجربة و كل فعل الشيطان و مؤامرة الناس الأشرار و قيام الأعداء الخفيين و الظاهرين أنزعها عنا و عن سائر شعبك و عن موضعك المقدس هذا .
بعدما شكرنا الله على كل حال و من أجل كل حال و فى كل حال . بدأنا فى الطلبات لأنه لا بد أن نشكر اولاً ثم نطلب . و فى طلبنا ، نطلب من ربنا أن ينزع منا أشياء و هى :

كل حسد

أول شئ نطلبه هو أن يبعد الله عنا الحسد . لماذا ؟ لأن الخطية دخلت إلى العالم بحسد ابليس . و نقول هكذا فى القداس " و الموت الذى دخل إلى العالم بحسد ابليس هدمته " .
فإبليس حسد الإنسان لأنه خلق على صورة الله و مثاله . و حسد الإنسان لأنه أصبح له مركز كبير فى الجنة ، و سلطه الله على جميع الكائنات ، جميع حيوانات الأرض ، و طيور السماء و سمك البحر . و حسد الإنسان لأنه أخذ مجداً حرم هو منه . فدخل إلى العالم لكي يغرى الإنسان و يسقطه
إن الحسد هو أول خطية دخلت فى قلب الشيطان من جهة الإنسان و بسببها جره إلى الموت . و على الأرض أيضاً بالنسبة لأولاد آدم ، كانت أول خطية وقعوا فيها هى الحسد .
فقايين حسد هابيل أخاه ، و نتيجة لهذا الحسد قتله ، و استمر الحسد فى نسل آدم .
عيسو حسد يعقوب لأنه أخذ البكورية . و حقد عليه ، و طلب أن يقتله ، أخوة يوسف حسدوا يوسف أيضاً . و استمر الحسد أيضاً حتى وسط القديسين . نجد أن الرسل الإثنى عشر غاروا من ابنى زبدى لما طلبت أمهما من المسيح أن يجلس واحد عن يمينه و الآخر عن يساره . و أيضاً التلاميذ الإثنى عشر غاروا من يوحنا الحبيب ، لما قال السيد المسيح عبارة فهموا منها أنه قد يستمر عائشاً إلى أن يجئ .
فالحسد موجود فى الإنسان موجود فى الشياطين و نحن لما نطلب من الله أن يبعد عنا الحسد نطلب الإثنين معاً : أن يبعد عنا حسد الشيطان ، و أن يبعد عنا حسد الناس .
نحن إما أن نعيش فى نجاح . أو فشل . إن عشنا فى فشل نتعب . و إن عشنا فى نجاح ، نتعرض لحسد الناس و الشياطين . لذلك نطلب من الله أن ينزع عنا كل حسد و كل تجربة . لم نقل تجربة من الأول ، لأن الحسد هو الذى يجلب التجارب . و الحسد أيها الأخوة له أسباب :
من ضمن أسباب الحسد : عدم المحبة : فلو وجدت محبة ، ما وجد حسد . الشخص المحب يفرح بنجاح أخيه ، و يسر و يمتلئ فرحاً إذا ارتفع اخوه و نال مركزاً سواء فى الروحيات أو فى العالميات . لكن الشخص المحب لنفسه ، المحب لمجد ذاته ، هذا يقع فى الحسد . فالحسد سببه عدم المحبة ، وسببه أيضاً الكبرياء ، و محبة الذات و محبة الارتفاع ، و هذه كلها موجودة فى العالم . نقول كل حسد و كل تجربة .
نحن لا نخشى الحسد الذى يخاف منه الناس العاديون : أى ضربة العين !

طبعاً هذا كلام لا نقبله ! إنما نقصد الحسد الذى يجلب لنا مشاكل أى أن الناس من غيرتهم ، يتسببون فى مؤامرات و دسائس ضدنا . هذا الذى نقصده .
و عبارة " كل حسد " تعنى الحسد الروحى و الحسد المادى :
فمن الجائز أن يحسدك إنسان ، لأنك تأكل اطعمة شهية أفضل منه . و آخر قد يحسدك لأنك تصوم أكثر منه . فمن الجهتين تلاقى حسداً ... أن سرت فى الخطية و تمتعت بملاذ الدنيا و عشت فى زهد ، تجد من يحسدك على الزهد .
فالحسد موجود على الرغم من اختلاف الاسباب . فى احدى المرات اعجب شخص بإنسان ، و ظل يمدحه كثيراً يعدد فضائله . فقال له شخص روحى :
كفاك مدحاً له ، خوفاً من حسد الشياطين له ! لأن الشياطين حينما يسمعون مدحك له ، يحسدونه على بره ، و يحاولون أن يسقطوه ... فاتركه إذن بعيداً عن حسدهم ، لأنه مازال أمامه طريق طويل فى الجهاد الروحى لا نعرف نهايته . و المهم بالنسبة إلى القديسين هو " نهاية سيرتهم " (عب١٣:٧) . فلا داعى للمديح الزائد ، لئلا تجلب له تجارب من حسد الشياطين ... إن الشياطين يحسدون القديسين ، لأنهم لا يحبون أن يصل أحد إلى الله ، و إلى النعيم الأبدى الذى حرموا منه .
و نحن نحترس من شر الشياطين و حسدهم ، أكثر مما نحترس من شر البشر و حسدهم ، أكثر مما نحترس من شر البشر و حسدهم لذلك نطلب من الله أن ينجينا من حسد هؤلاء و أولئك .
هناك نوع ثالث من الحسد ، نطلب من الله أن ينقذنا منه . و هو حسدنا نحن للآخرين .
ليس الأشرار فقط هم الذين يحسدون . إننا نحن أيضاً ، أحياناً نحسد ... من منا لم يقع أحياناً فى الغيرة و الحسد ؟! و لو فى بعض المناسبات ، لذلك نطلب من الله أن ينقذنا من مثل هذه المشاعر الخاطئة ... قد يجلس معك شخص ، و يمدح إنساناً كثيراً ، كما لو كان مثالاً يحتذى و ربما إذا أكثر المدح ، تجد قلبك من الداخل يتحرك ، و تبدأ أفكار تحاربك : أترى هذا الشخص مغروراً فيه ، أم لا يعرفه كما ينبغى ، و لا يعرف نقائصه ؟!
يقيناً لو كنت تحب ذلك الشخص من أعماقك ، لكنت تفرح بما تسمع عنه من مديح .. ربما بعض الحسد دخل إلى قلبك .
و الكتاب يقول إن المحبة لا تحسد (١كو١٣:٤) .
نحن نطلب من الله أن يبعد عنا ثلاثة أنواع من الحسد :
أ- حسد الشياطين لنا .
ب- حسد الناس الأشرار لنا .
ج- حسدنا للآخرين فى كل صورة .
و ما الذى نطلبه أيضاً أن يبعده الرب عنا ؟

و كل تجربة

فى الصلاة الربانية نطلب أيضاً و نقول لله " لا تدخلنا فى تجربة " . و المسيح نفسه هو الذى علمنا الصلاة الربية و قال لنا قولوا " لا تدخلنا فى تجربة " و أيضاً قال " اسهروا و صلوا لئلا تدخلوا فى تجربة " (مر١٤:٣٨) . و نحن نطلب من الله أن يبعد عنا كل حسد و كل تجربة .
ما رأيكم إذن فى قول الكتاب " احسبزه كل فرح يا اخوتى حينما تقعون فى تجارب متنوعه " (يع١:٢) . كيف تكون التجارب مفرحة لنا ، بينما نطلب من الله أن يبعد عنا كل حسد و كل تجربة ؟
نقول لا تدخلنا التجارب : أولاً بدافع الإتضاع و الانسحاق . بمعنى أننا لسنا فى مستوى الانتصار على التجارب . التجارب لها إحدى نتيجتين : إما أن ينتصر الإنسان فيها و يتمجد ، و إما أن يسقط بسببها و يفشل . و نحن لا نضمن النتيجة . ربما نكون من النوع الثانى !
لذلك نقول له : نحن أمامك يا رب . لسنا ندعى أننا أقوياء . و لسنا أقوى من الذين سقطوا ، بل كم سقطنا من قبل . لذلك أن نطلب منك أن تبعد عنا التجارب ...

أخشى أن يغتر أحد بنفسه ، و يدعى لنفسه القوة و القدرة فى الصمود أمام كل تجربة . و يقول للرب فى صلواته " هات يا رب من التجارب ما تشاء. معك رجل . إبنك قادر و يستطيع " !! كلا يا رب ، ابعدها عنا ، فإننا ضعفاء .
أما أن شاءت محبتك و رحمتك أن تصادفنا تجربة ، تراها حكمتك لخيرنا ، فحينئذ سنحسبه كل فرح حينما نقع فى تجارب متنوعة ...
من النوع الذى معه المنفذ و معه الحل ، و من النوع الذى هو فى مستوى احتمالنا و ليس فوق ما نطيق ، هذا الذى قال عنه الرسول : " و لكن الله أمين الذى لا يدعكم تجربون فوق ما تستطيعون ، بل سيجعل مع التجربة أيضاً المنفذ لتستطيعوا أن تحتملوا " (١كو١٠:١٣) .
أو تكون التجربة من النوع الذى يؤول إلى خيرنا روحياً ، و تكون معه نعمة حافظة . هذه هى التجارب المتنوعة التى نفرح بها ، و التى يمسك الرب فيها بيميننا حتى لا نتزعزع .
"كل حسد و كل تجربة " . و التجارب على ؟أنواع :
تجارب روحية : كأن يجربنا الشيطان بشئ ليسقطنا فى الخطية . حاول الشيطان أن يجرب المسيح ليسقطه و لم يتمكن . و خدع آدم و حواء فسقطا . هذه تجارب روحية .
و هناك تجارب أخرى مثل التجارب التى تعرض لها أيوب الصديق . تجارب فى الأولاد و الصحة و المال ، أشياء كثيرة من هذا النوع . أما نحن فنقول " كل حسد و كل تجربة " سواء تجربة روحية أو عالمية . نجنا من كليهما . فنحن أضعف من هذه و من تلك .

و كل فعل الشيطان

لأن الشيطان كما يقول القديسون فتال حبال . إنه يفتل حبالاً و يعمل شباكاً ، لكي يوقع الناس فى شباكه . إنه ينصب فخاخاً و نحن نطلب من الله أن ينجينا من كل فعل الشيطان ، لكي نغنى مع داود و نقول " الفخ انكسر و نحن نجونا . مبارك الرب الذى لم يسلمنا فريسة لأسنانهم " (مز١٢٤:٧) .
كما فعل الشيطان سواء كان فعلاً مباشراً من الشيطان ، أو كان الشيطان مجرد وسيط فيه . كأن يتكلم على لسان أحد البشر ، أو يسلط علينا أحداً من البشر . سواء اشتغل بنفسه أو أشترك الناس الأشرار معه . كل فعل الشيطان . الكنيسة تصلى باستمرار أن ينجينا الرب من فعل الشيطان . حينما يعتمد إنسان فإن الكنيسة تدهنه بزيت الغاليلاون و تطلب أن يمنع الله عنه كل حيل و تجارب الشيطان ، و كل فخاخ الشيطان ، و كل مكر الشيطان . لأن الشيطان يستطيع أن يظهر بضربة شمال ، يخدع بضربة يمين . إن لم يقدم لك الخطية حلوة و شهية ، يقدم لك البر فى أسلوب فوق طاقتك ، و يحاربك به ، و يوقعك فى المجد الباطل . يحارب على كل حال ، لكي يسقط على كل حال قوماً . نحن نطلب من الله أن ينجينا من كل فعل الشيطان . فإن الله أقوى من الشيطان ، و لأن الشيطان يستطيع أن يخدع كثيرين . إن لم يخدع بضربة شمال ، يخدع بضربة يمين . إن لم يقدم له الخطية حلوة و شهية ، يقدم لك البر فى أسلوب فوق طاقتك ، و يحاربك به ، و يوقعك به فى المجد الباطل . يحارب على كل حال ، لكي يسقط على كل حال قوماً .
نحن نطلب من الله أن ينجينا من كل فعل الشيطان . فإن الله أقوى من الشيطان ، و لأن الشيطان لا يستطيع أن يتصرف من تلقاء ذاته ، بل فى كل تجربة يأخذ سماحاً من الله .
عندما أتى الشيطان بكل قوته و ضرب أيوب الصديق ، أتى أولاً بسماح من الله . فمادامت المسألة واقعة فى يد ضابط الكل ، و مادام الشيطان لا يستطيع أن يتصرف من ذاته ، إن لم يأخذ سماحاً ، فنحن نطلب من الله ضابط الكل هذا ، أن لا يسمح له ، و أن سمح ينجينا من الشيطان .
نحن لا نحاف الشيطان كقوة قائمة بذاتها ، فالوثنيون قديماً كانوا يظنون أن هناك إلهين : إله للخير و إله للشر . أما الكنيسة فلا تؤمن بأفكارهم ، فليس هناك إله للشر . لا يوجد الشيطان كقوة قائمة بذاتها ، تعاكس الله ... الشيطان أيضاً من خليقة الله . غير أن الله لم يخلقه شيطاناً ، بل ملاكاً . و

هو الذى حول نفسه إلى شيطان . فمادام هو خليقة من خلائق الله ، و مادام هو تحت سلطان الله فنحن نطلب من الله – الذى هو خالقه و مسيطر عليه – أن ينجينا من أفعاله .
الشياطين ضعفاء أمام قوة الروح العامل فيكم .
القديس العظيم الأنبا أنطونيوس كلم أولاده فى مقالة طويلة عن ضعف الشياطين و خوف الشياطين ، و أنه لا يصح أن نخاف منهم . بل هم الذين يخافون منا . مقالة طويلة نشرها القديس أثناسيوس الرسولى فى كتابه عن حياة الأنبا أنطونيوس . لذلك فإن القديسين كانت لهم سيطرة عجيبة على الشياطين . كانت لهم قوة . كانت الشياطين تخاف منهم ... فلا تخافوا من الشيطان .
فإذا بدأ الشيطان يحاربك : قل له " إننا أخذنا قوة من المسيح ضد جميع الشياطين " . من هو هذا الشيطان الذى يحاربك ؟
إنه لا يحتمل مزموراً منك . و لا يحتمل صلاة من صلواتك . و شئ أكثر من هذا ، إنه لا يستطيع احتمال تواضعك .
إذا أردت أن ينجيك الرب من كل فعل الشيطان ، اسلك فى التواضع . فقد أتى الشيطان إلى القديس الأنبا مقاريوس الكبير و قال له " ويلاه منك يا مقارة ، أى شئ أنت تعمله ، و نحن لا نعمله ؟! أنت تصوم ، و نحن لا نأكل . أنت تسهر ، و نحن لا ننام . و أنت تسكن فى البرارى و القفار ، و نحن كذلك . و لكن بشئ واحد تغلبنا ، بتواضعك " . قال ذلك لأن التواضع يخزى الشياطين . إذا رآك الشياطين متواضعاً ، ينظرون فيك صورة المسيح الذى حطمتهم و هزمتهم ، بتواضعك و يخافون منك . فى انسحاق اطلب من الرب أن ينجيك من الشياطين ...

مؤامرة الناس الأشرار

نطلب من الله أن ينجينا من مؤامرة الناس الأشرار . و لكن نصيحتى لك أنك بالنسبة لعبارة " الناس الأشرار " لا تضع فى ذهنك شخصاً معيناً حين تقولها .
مؤامرة الناس الأشرار تعى أى مؤامرة تأتيك من الأشرار أو بالحرى من الشياطين ، و كل أعوانهم.
و إن جاء فى فكرك إسم معين قل " هذا الشخص أبر منى " .
كل حسد و كل تجربة و كل فعل الشيطان ... و ماذا أيضاً ؟

و قيام الأعداء الخفيين و الظاهرين

تؤخذ هذه العبارة على عدة معان :
١ – إما أن الأعداء الخفيين هم الشياطين ، و الظاهرين هم أعداؤنا من بنى البشر .
٢ – أو بمعنى آخر ، أن " الأعداء الخفيين " هم الذين لا نعرفهم ، و الظاهرين هم الواضح عداؤهم . هناك إنسان تعرف تماماً أنه عدو . إنه عدو ظاهر . هناك عدو خفى يبتسم فى وجهك ، و يبدو كما لو كان يدافع عنك ، و يعطيك من طرف اللسان حلاوة ، و كلامه " ألين من الزيت " ، و مع كل ذلك يكون عدواً خفياً ...
٣ – ثالثاً : لا شك أن من ضمن الأعداء الخفيين الأصدقاء المتملقين : الصدق الذى يمدحك بدون وجه حق ، و يقول لك " برافو عليك ، أنت أعجبتنى فى الموقف الفلانى " . و يكون ذلك الموقف سبباً لهلاكك فى جهنم !! إنه عدو خفى . فى ظاهره صديق ، و هو عدو . لذلك قال الكتاب المقدس " أمينة هى جراح المحب ، و غاشة هى قبلات العدو " (أم٢٧:٦) .

من الجائز أن الصريح معى فى عدائه ، يكون قلبه أبيض ، و من بساطته يجاهر بما يعتقد . بينما هناك شخص آخر ، من مكره و خبثه ، بيخفى عنى حقيقته ، و هو حية تدفن نفسها فى التراب ، دون أن ترى منها شيئاً ، و دون أن تشعر بها ... هذا معنى آخر للأعداء الخفيين و الظاهرين .

٤- هناك معنى رابع للأعداء الخفيين و الظاهرين و هو : من الجائز أن الأعداء الخفيين يقصد بهم الخطايا الخفية داخلك ، التى لا تراها . نعم ، نعم هناك أعداء خفيون فى أعماقك من الداخل ... فى أعماق غرائزك ، و فى أعماق قلبك و حواسك ، و فى أعماق شهواتك .

هناك أعداء ظاهرون . و ربما عدوك الظاهر هو يدك أو عينك أو لسانك . هذه أعضاء ظاهرة . و عدوك الخفى هو قلبك . من الداخل ... هذه أعضاء أو أعداء ، خفية و ظاهرة .

حقاً ، إن الإنسان عدو نفسه .

من الجائز أن الناس يكونون الأعداء الظاهرين . و دواخل نفسك تكون هى الأعداء الخفيين ... كل هؤلاء تطلب من الله أن ينجيك منهم .

لاحظوا هنا أن الأجبية مفيدة فى أنها تعطينا تفاصيل عجيبة لا يمكن أن تطلبها لو كنت تصلى صلاة ارتجالية . هل معقول أن يطلب أحد أن ينجيه الرب من كل هذه الأشياء معاً ؟ لا أظن .. كل هذه نقول للرب عنها .

انزعها عنا و عن سائر شعبك

فى هذه الطلبة تقدم لنا الأجبية توجيهاً أن يكون الشخص منا غير أنانى فى صلاته .

كما يطلب من الرب أن ينزع الشر عنه ، يطلب كذلك أن ينزعه عن جميع الناس . " عنا ، و عن سائر شعبك " .

و هنا أحب أن أسأل سؤالاً بسيطاً ياليتك تجيب عنه بصراحة عن نفسك . عندما تطلب هذه الطلبة فى صلاتك " انزعها عنا و عن سائر شعبك " .

هل تطلب أن ينزع الرب هذه الشرور عن جميع الناس بما فيهم أعدؤك ؟! .

الذين أحياناً نتضايق منهم ، تكرههم . أم أنت تطلب و تقول " انزعها عنا و عن سائر شعبك ، و فى قلبك لا تقصد فلاناً و فلاناً .. ؟! أو على الأقل يكون موقفك منهم سلبياً ...

لو أنك يا أخى تطلب فعلاً من أجل جميع الناس ، تكون فى هذه الحالة مصلياً أيضاً من أجل أعدائك ... و ليس فقط من أجل مجموعة معينة . بل أنت تصلى من أجل جميع الناس ، بما فيهم الذين يعادونك و يضطهدونك ، و يقولون عنك كل كلمة شريرة كاذبين . هؤلاء أيضاً تقول " يا رب انزع عنهم كل حسد و كل تجربة و كل فعل الشيطان و مؤامرة الناس الأشرار ، و قيام الأعداء الخفيين و الظاهرين ، الذين منهم أنا ، أنا الذى ربما لا يفرحنى الخير لهم !

صل من أجل جميع الناس ، من أجل الشعب كله لأنهم كلهم أخوتك ، و كلهم محتاجون إلى رحمة الله . و قل يا رب : هذه الشرور كلها انزعها عنا ، و عن سائر شعبك .

و عن موضعك المقدس هذا

نطلب من الله أن يمنع الشر عن الناس و المكان – أى لا تسمح يا رب أن هذا المكان يكون عرضة لعمل الشياطين و لمؤامرة الناس الأشرار .
نحن نطلب أن يقدس الله المكان و يحرسه و يباركه ، لأنه موضعه المقدس ، و من الجائز أن نقول صلاة الشكر فى أى موضع . فحينما نقول " موضعك المقدس هذا " إنما نعنى أن هذا المكان الذى تصلى فيه هو مكان مقدس ، أو صار كذلك .
ربما تقول " إننى أصلى الآن فى هذه القاعة ، و القاعة ليست كنيسة ، و غير مدشنة " ... أقول لك إنها تقدست بصلواتك ، بتسابيحك ، بتراتيلك ، تقدست بوجودك أنت فيها ، بقلبك الطاهر ، بحواسك النقية .
و حينما تقول عبارة " موضعك المقدس هذا " و أنت فى غرفتك الخاصة . أشعر أن غرفتك الخاصة هى موضع مقدس لله . و إن قلت هذه الصلاة فى الشارع ، اشعر أن الشارع يتقدس بالصلاة التى تصليها فيه ...
ألسنا نسير أحياناً فى البرية و نقول " ما أقدس هذه الأرض التى داسها أرسانيوس بقدميه ، و مشى عليها موسى الأسود و أنبا بيمن و مكسيموس و دوماديوس ... إنها أرض مقدسة ، برية مقدسة .
و كيف تقدست ؟ تقدست لأن القديسين داسوا عليها فقدسوها . لأن هناك أراض أخرى لم تكن مستحقة أن يدوسها بأقدامهم . فهذه الأرض التى استحقت أن يدوسوها بأقدامهم ، هى أرض مقدسة . فأنت يا أخى إذن تقدس المكان . المكان يتقدس بك .
و حينما تقول للرب موضعك المقدس هذا ، ماذا تقصد بهذا ؟ تقصد أن تقول له أن هذا المكان هو موضعك أنت ، هو مكانك . و أنت تقدسه ، لأنى عندما أصلى تكون أنت معى كما قلت " ها أنا معكم كل الأيام " (متى ٢٨: ٢٠) . و كما قلت " حيثما اجتمع إثنان أو ثلاثة باسمى ، فهناك أكون فى وسطهم " (متى١٨: ٢٠) . و بحلولك يارب فى مكان صلاتنا ، تقدس المكان . إذن فانزع عن هذا الموضع المقدس الذى لك ، كل حسد و كل تجربة و كل فعل الشيطان ...

أما الصالحات و النافعات فارزقنا إياها

نحن لا نطلب فقط من الناحية السلبية أن ينجينا الله من الحسد و التجربة و فعل الشيطان ... و إنما من الناحية الإيجابية نطلب من الله أن يعطينا الصالحات و النافعات . و كأننا نقول له " الأشياء الصالحة هى من عندك . و أما كل شر فهو من فعل الشيطان و مؤامرة الناس الأشرار " ... فارزقنا هذه الصالحات و النافعات .
الصالحات كما تراها أنت يارب ، و ليس ما يراه فهمنا البشرى القاصر .

لأنك أنت الذى أعطيتنا السلطان أن ندوس الحيات و العقارب

المقصود بالحية هو الشيطان . لأن الشيطان فى سقطة آدم الأول تكلم من فم الحية . و سفر الرؤيا يقول عن الشيطان إنه هو " الحية القديمة " (رؤ٢٠: ٢) .
و عندما نقول " أعطيتنا أن ندوس الحيات و العقارب و كل قوة العدو " ، نقصد أن ندوس الشيطان و كل جنوده و كل قوتهم . و السيد المسيح عندما أرسل تلاميذه فى ارساليته الأولى لهم ، " أعطاهم سلطاناً على الأرواح النجسة " (متى١٠: ١) .

من الأمور المعزية جداً فى صلواتنا أن نتذكر أن الله أعطانا سلطاناً على الشيطان و كل جنوده . أهل العالم يخافون أن يكون للشياطين سلطان عليهم . أما نحن فعلى العكس ، أعطانا الرب سلطاناً عليهم ، على كل قوة العدو . أعطانا سلطاناً أن ندوسهم .
قال الرب " أبصرت الشيطان ساقطاً مثل البرق من السماء " (لو١٠:١٨) . و سفر الرؤيا يقول إن ربنا قيد الشيطان (رؤ٢٠:٢) . فالشيطان إذن ليس له علينا سلطان . لقد أعطانا الرب أن ندوس الحيات و العقارب و كل قوة العدو .
الأنبا أنطونيوس ، كانت الشياطين تهرب منه و تخافه . كذلك فإن الشيطان الذى قابل القديس مكاريوس الكبير ، قال له " ويلاه منك يا مقارة " . و الشيطان الذى قابل الأنبا ايسيذورس قال له " ٣٠٠٠راهباً فى البرية لا أقدر أن أضرهم بشئ و أخ واحد كان لنا ، جعلته يعتدى علينا النهار و الليل !! أما يكفيك أننا لا نقدر أن نعبر على قلايتك ، و لا على القلاية التى إلى جوارك ؟! " ذلك أن الشخص المجاور له ، كان يعيش تحت ظل صلواته .
الله أعطانا سلطاناً على الشياطين لكي تخاف منا و ترتعش .
كيف يمكن أن يكون لك سلطان على الشياطين فتخافك ؟
فى أول الأمر يبدأ الشيطان أن يحارب الإنسان ، يجربه ، يتعامل معه ، يجس نبضه ، يزنه ، يختبر معدنه ... يحاربه بالحواس بالنظر بالسمع باللمس ، فينتصر الإنسان فى حرب الحواس يحاربه بالأفكار ، فينتصر عليه . حينئذ يخاف الشيطان ، و يشعر بالعجز أمامه .
تماماً مثلما حدث مع القديس الأنبا أنطونيوس : حاربته الشياطين بالأفكار ، و بالشكوك ، فانتصر عليهم . حاربوه بمغريات العالم ، القوا الذهب فى طريقه ، فانتصر أيضاً. حاربوه بالشهوات ، ثم بالمفزعات ، و لم يقدروا عليه .. فبدأوا يخافون منه . قالوا : " لا ليس هذا الإنسان من النوع العادى الذى نقدر عليه . إنه من عجينة أخرى " و إذ كان يهزمهم فى كل مرة ، بدأوا يخافون منه ، و يهربون من طريقة ...
حينما يرونه يقولون " أيريد هذا الإنسان أن يحطمنا كما فعل أمساً ، و قبلاً من أمس ؟! " و هكذا يهربون من طريقه ... مثل بطل من الأبطال ، كل من يتعرض له ينكسر . حينئذ يخاف من التعرض له . و إن رآه أحد ، يتحاشى الاحتكاك به ، و يقول له فى سره " رضيت من الغنيمة بالإياب " .
هكذا كان الشياطين يخافون من القديسين :
إن صلى الواحد منهم ، ترتعش الشياطين و تهرب . لا يهم إن كانت الصلاة طويلة أم قصيرة : المهم إنهم حينما يعرفون أن هذا الإنسان قد دخل فى الموضوع ، يبتعدون و ينصرفون ، متأكدين أن فخاخهم قد انكسرت فى هذا الأمر الذى يصلى من أجله ...
مادام الله أعطانا سلطاناً على الشياطين ، إذن لا يصح أن نخاف منهم . و هذه الهبة تستدعى منا الشكر لله ، و أيضاً تقوى إيماننا ، و تعطينا ثقة فى المستقبل ، أن الشيطان سوف لا يقوى علينا .
إن الشيطان لا يستطيع أن يقوى على الإنسان المؤمن ، إلا إذا سلم هذا الإنسان نفسه للشيطان ، و تنازل عن قوته . مثال ذلك قصة شمشون و دليله .
شمشون كانت عنده قوة جبارة يهزم بها الكل . لكنه سلم نفسه ، و تراخى و باح بالسر ، و أعطى رأسه لمن يقص شعره !! هو الذى ضيع نفسه . الله أعطاه قوة ، و لكنه لم يستخدمها ، بل بعثرها و أنفقها فى عيش مسرف .
فلا يعتذر أحد عن نفسه ، و يقول " إن الشيطان قوى " . لا يا حبيبى ، أنت أقوى منه .
و الله أعطاك السلطان أن تدوس الحيات و العقار و كل قوة العدو . إنما أنت الذى تستسلم و تستضعف . أنت الذى تعطى روحك للشيطان . و إلا كيف تصلى إذن صلاة الشكر و تقول " لأنك أعطيتنا السلطان ... " !
سلطان ! تصور ... أعطاك سلطاناً . أنت إذن شخص ذو سلطان على جميع الشياطين . ما أروعك ! لماذا . لأن الله أخضعهم كلهم تحت قدميك ...
هل بعد هذا تقترب من الشياطين و تقول لهم " هلم نتفاهم : تعطونى خطية ، و أنا أعطيكم ارادتى .

تعطونى شهوة و أنا أعطيكم العزيمة و الفكر ، و استسلم لكم " . و هكذا تفتح أبوابك للشياطين ! إذن العيب هو عيبك أنت ...
إن كنت بلا قوة أيها الأخ ، يكون لك عذر ، أما و قد أعطيت سلطاناً من الله ، فلماذا تخطئ ؟!
مادامت لك قوة على المقاومة ، و لم تستخدمها ، لذلك ينبغى أن تخجل بالأكثر . إننا نشعر بالخزى ، لأن الله أعطانا سلاحاً ، فلم نستخدمه ، و سلمناه لأعدائنا يقتلوننا به . بل إننا نشعر بخزى أكثر ، لأننا فى خضوعنا للشياطين ، إنما نخضع للحيات و العقارب !
و فى اعترافنا بأنهم حيات و عقارب ، إنما نعترف ببشاعة الخطية . ليست هى شهية كما يراها الأشرار . نقول بعد ذلك فى صلاتنا ...

و لا تدخلنا فى تجربة لكن نجنا من الشرير

مادمت يا رب قد أعطيتنا السلطان ، فلا تسمح بأن نقع فى أيدى الشياطين . لئلا نفتكر أننا ذو سلطان فننتفخ ، ثم نسقط . إننا على الرغم من كل هذا السلطان نلتمس معونتك و رحمتك .
إننا لا ننجو من الشرير بقوتنا و لا ببرنا ، و لكن بالنعمة التى أعطيت لنا فى المسيح يسوع . بالنعمة و الرأفات و محبة البشر التى له . ننجو من الشرير لأن الله يتراءف علينا ، و لا يتخلى عنا ، و إلا شابهنا الساقطين فى الجب .
إن وجدنا فى أنفسنا شيئاً من الخير ، فلا يصح أن نعتبر هذا منا ، و إنما من محبة الله للبشر .

هذا الذى من قبله المجد و الكرامة

المسيح مملوء مجداً و كرامة ، لأن المجد الحقيقى فيه . نحن ليس لنا مجد ، لأننا خطاة و تراب و رماد ... أما المسيح فله المجد ... إنه بهاء مجد الآب و رسم جوهره (عب١:٣) . عندما أراد الآب أن نراه . رأيناه فى إبنه . و هكذا قال السيد المسيح " من رآنى فقد رأى الآب " (يو١٤:٩) . له المجد أيضاً فى أعماله الصالحة ، و له المجد فى معجزاته . له المجد منا جميعاً ، لأننا نعيش فى احساناته و محبته ...
له المجد و الكرامة . و دائماً نذكر هذه الناحية : لأن المسيح الذى عاش فى الأرض محتقراً و مرذولاً من الناس (اش٥٣:٣) الذى أهين من الناس و بصق عليه و صلب ، نحن نقول إن له المجد و الكرامة و العز و السجود ...
إن السجود لا يليق إلا بالله . فلماذا نقول " له السجود " ؟ إننا بهذا نعترف بلاهوته ، لأن من حقه السجود . و قد قال عنه الكتاب إن له تجثو كل ركبة ممن فى السماء و من على الأرض و من تحت الأرض (فى٢:١٠) . و أيضاً " لتسجد له كل ملائكة الله " (عب١:٦) ...

تليق بك معه و مع الروح القدس ...

هنا نوجه تمجيدنا للثالوث الأقدس . له الشكر الدائم إلى الأبد عن هذا الجزء الأخير من الصلاة ، اقرأ الكتاب الأول من تأملاتنا فى أسبوع الآلام ، عن تسبحة البصخة ، و عنوانه :

لك القوة و المجد ...

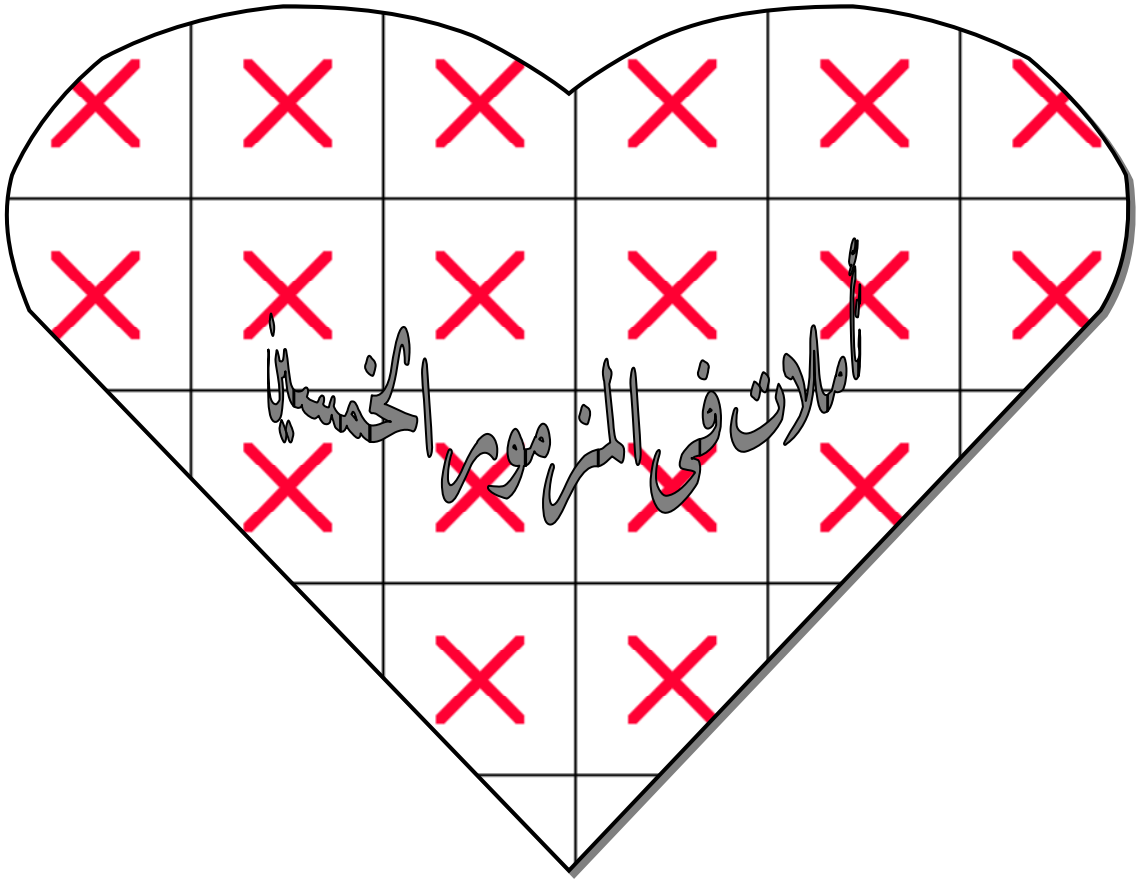
أملاك في المزمور الخمسين

المزمور الخمسين

أرحمنى يا الله كعظيم رحمتك و مثل كثرة رأفتك تمحو أثمى و تغسلنى من كثيراً من أثمى و من خطيتى تطهرنى . لأنى عارف بأثمى ، و خطيتى أمامى فى كل حين . لك وحدك أخطأت و الشر قدامك صنعت . لكي تتبرر فى أقوالك و تغلب إذا حوكمت لأنى ها أنذا بالاثم حبل بى ، و بالخطايا ولدتنى أمى .
لأنك هكذا قد أحببت الحق . اذ أوضحت لى غوامض حكمتك و مستوراتها . تنضح على بزوفاك فأطهر . و تغللنى فأبيض أكثر من الثلج . تسمعنى سروراً و فرحاً فتبتهج عظامى المنسحقة .
أصرف وجهك عن خطاياى و أمح كل آثامى .
قلباً نقياً اخلق فى يا الله و روحاً مستقيماً جدده فى أحشائى لا تطرحنى من قدام وجهك و روحك القدوس لا تنزعه منى . امنحنى بهجة خلاصك . و بروح رئاستى ثبتنى فأعلم الأثمه طرقك و المنافقون إليك يرجعون .
نجنى من الدماء يا الله إله خلاصى فيبتهج لسانى بعدلك . يا رب افتح شفتى فيخبر فمى بتسبيحك لأنك لو آثرت الذبيحة لكنت الأن أعطى . و لكنك لا تسر بالمحرقات فالذبيحة لله روح منسحق .
القلب المنكسر و المتواضع لا يرذله الله .
انعم يا رب بمسرتك على صهيون و اتبن أسوار أورشليم حينئذ تسر بذبائح البر قرباناً و محرقات و يقربون على مذابحك العجول هللويا .

هذا المزمور بين المزامير

تشمل المزامير موضوعات متعددة جداً ...
ففيها التسبيح و التمجيد ، و التأمل فى صفات الله و فى أعماله ، و فى خليقته و فى ملكه ، و فى وصاياه و فى مساكنه . و فى المزامير أيضاً طلبات متنوعة ، و صراخ إلى الله . و فيها الشكوى و العقاب أيضاً ، و فيها عبارات الحب و الاشتياق إلى الله ، و الشكر و الاعتراف بجميل الرب و برعايته و أفضاله ، و فيها الفرح و التهليل ، و ذكريات الحياة مع الله . و فى المزامير أيضاً نبوءات ، و كلمات البركة ، و نصائح و ارشادات ، و تطويبات . و فيها أيضاً كلمات البركة ، و نصائح و ارشادات ، و تطويبات . و فيها أيضاً كلمات التوبة ، و انسحاق القلب ، و الدموع ، و الاعتراف بالخطية .
و المزمور الخمسون هو من مزامير التوبة ، بل هو اشهرها .
و لعل أول مزمور من مزامير التوبة هو المزمور السادس ، الذى يبدأ بعبارة " يا رب لا تبكتنى بغضبك ، و لا تؤدبنى بسخطك " . و المزمور الثامن و الثلاثون يبدأ بنفس العبارة أيضاً .
و يمكن أن نعتبر من مزامير التوبة أيضاً السالفة فى الترتيب المزمور الخمسين و المزمور ٣٢،و المزمور ١٢،٢٥... و لكن المزمور الخمسين هو أشهرها جميعاً . و رقمه فى الترجمة البيروتية ٥١. و الكنيسة تضعه فى مقدمة كل صلاة فى الأجبية :
سواء ذلك فى صلوات النهار أو الليل . نكرره أكثر من سبع مرات كل يوم ، و يدخل فى صلواتنا الطقسية ، و هو ملازم فيها للصلاة الربية و صلاة الشكر . و لا يوجد إنسان متدين إلا و يحفظه ، حتى تلاميذ التربية الكنسية يحفظونه ... و من شهرته وضعت فيه الكثير من الكتب لعديد من مشاهير الوعاظ و المفسرين ، فى كل الكنائس ...
أول من صلاه هو داود النبى بعد سقطته :
بعد أن أخطأ مع بثشبع ، و تسبب فى قتل أوريا الحثى . و بعد أن أرسل له الله ناثان النبى ينبهه إلى بشاعة فعله ، و يقول له " أنت هو الرجل " (١صم١٢:٧) . فاعترف داود و قال : " أخطأت إلى الرب " (٢صم ١٢:١٣) . و قد سرد عليه ناثان انذارات الرب و عقوباته " جعل أعداء الرب يشمتون " . و بدأ داود يشعر بثقل ذنبه ، و صلى هذا المزمور ، و بدأه بقوله :

ارحمنى يا الله كعظيم رحمتك

عبارة " أرحمنى يا الله " عبارة يقولها كل إنسان :
نعم ، كل إنسان أياً كان قدره ، لأن كل إنسان محتاج إلى الرحمة . نحن نبدأ بها الصلوات إذ نقول " أبشويس ناى نان " و معناها بالقبطية " يا رب ارحمنا " . و نقولها حينما نردد كلمة كيريا ليصون ٤١مرة فى كل صلاة ، و تعنى فى اليونانية أيضاً " يا رب أرحمنا " . و نقولها فى لحن " أفنوتى ناى نان " أى يا الله أرحمنا . و نقول فى الثلاث تقديسات " أيها الثالوث المقدس ارحمنا " ثلاث مرات . وننتهى بقولنا : يارب أرحم ، يارب ارحم ، يارب بارك أمين ... نبدأ فى الصلوات ، ونكررها مرات ومرات ...
وهنا يقول المرتل : ارحمنى ياالله ... لأن هذا هو المدخل الوحيد الذى أدخل به إليك ...
أنا خاطئ تحت الحكم ، و معترف بخطيئتى ، و مستوجب لكل دينونة . و ليس أمامى سوى باب واحد أدخل منه إليك ، و هو رحمتك ... رحمتك أنت ، المعروف بالرحمة ، و أيضاً بالمغفرة .

و لقد ردد هذا المعنى فى المزمور ١٠٣ فقال " الرب رحيم و رؤوف طويل الروح كثير الرحمة .. لم يصنع معنا حسب خطايانا و لم يجازنا حسب آثامنا . مثل آرتفاع السموات فوق الأرض ، قويت رحمته على خائفيه ... كبعد المشرق عن المغرب ، أبعد عنا معاصينا " (مز١٠٣:٨-١٢) .
و فى هذا المزمور يذكر الرحمة أولاً قبل ذكر خطاياه :
يذكرها الله ، فتغطى على الخطايا و تخفيها ، لأن هذه الرحمة هى سبب المغفرة . و ماذا تكون خطايا أى إنسان ، إذا وضعت أمام مراحم الله ؟! إنها لا شئ : كقطعة من الطين ألقيت فى المحيط ، يفرشها فى أعماقه و لا تظهر . و هكذا نحن نصلى و نقول " كرحمتك يا رب و ليس كخطايانا " . و فى هذا قال داود أيضاً " أذكر مراحمك يا رب و أحساناتك ، لأنها منذ الأزل هى . لا تذكر خطايا صباى و معاصى " (مز٢٥،٧:٦) . و فى صلاة العشار ، ذكر الرحمة أولاً قبل الخطية ، فقال " ارحمنى أنا الخاطئ " (لو١٨:١٣) .
و لأن الخطية بشعة ، فإن المرتل يذكر الله بعظيم رحمته :
برحمته غير المحدودة ، التى تتسع لجميع الخطايا ، لجميع الناس ، فى جميع العصور ... منذ آدم خلال جميع الأجيال ... و كأنه يقول : فى أنا الخاطئ تظهر جميع مراحمك ، أجعلنى موضوعاً لرحمتك . أضف إسمى إلى القائمة غير المحصاة لخطاة غفرت لهم ... لأولئك الذين قدمت عنهم المحرقات و ذبائح الخطية و ذبائح الإثم .
و بالنسبة إلينا – حينما نصلى هذا المزمور – نضيف إلى مراحم الله العظيمة كل ما شملته بعد عصر داود النبى : المرأة المضبوطة فى ذات الفعل ، و المرأة التى بللت قدميه بدموعها ، و المرأة السامرية ، و أوغسطينوس ، و موسى الأسود ، و كبريانوس الساحر ، و لونجينوس الحندى ، و أريانوس الوالى ، و بيلاجيه و مريم القبطية ، و كثيرين آخرين كمجرد أمثلة لمن تراءف عليهم الرب ، و شملهم بعظيم رحمته .
هنا نسمع ألفاظ الرحمة و الرأفة و ليس مشاعر الدالة .
فالإنسان فى حالة الخطية ، لا تملكه مشاعر الدالة ، و إنما الإحساس بالذلة ، هنا لا يقول داود " محبوب هو إسمك يا رب ، فهو طول النهار تلاوتى " (مز١١٩) " بإسمك أرفع يدى ، فتشبع نفسى حما من شحم و دسم " (مز٦٢) ، " كلماتك حلوة فى حلقى ، أفضل من العسل و الشهد فى فمى " (مز١١٩) ... نعم لا يستطيع أن يقول " كما يشتاق الإيل إلى جداول المياة ، هكذا تشتاق نفسى إليك يا الله ... عطشت نفسى إلى الله " (مز٤٢)، " عطشت نفسى إليك " (مز٦٢) ... هذه الدالة أختفت ، بكسره لوصايا الله ... إنما الحديث هنا عن الرحمة و الرأفة ... فيتابع كلامه و يقول :

و مثل كثرة رأفتك تمحو إثمى

إلى جوار الرحمة العظيمة التى يستند إليها ، يستند أيضاً إلى رأفات الله الكثيرة ... و هاتان الصفاتان جمعهما معاً فى قوله " الرب رحيم و رؤوف " (مز١٠٣:٥) . و نفس الصفتين جمعهما أيضاً يونان النبى فى قوله للرب " علمتأنك إله رؤوف و رحيم ، بطئ الغضب ، و كثير الرحمة " (يون٤:٢) . و الرأفة عند الله تشمل الحنان و العطف و طيبة القلب ... فكم إذن كثرة رأفاته ؟ ... إنه من أجل كثرة رأفات الله يطلب منه ليس فقط أن يغفر إثمه ، إنما أن يمحوه تماماً .
يمحوه ، أى لا يبقى له أى أثر على الإطلاق ، كأن لم يحدث . و هذا الأمر يتفق تماماً مع مراحم الله و رأفاته . – إنه هو القائل – فيما بعد – فى سفر اشعياء " أنا هو الماحى ذنوبك . و خطاياك لا أذكرها " (اش٤٣:٢٥) و أيضاً " قد محوت كغيم ذنوبك ، و كسحابة خطاياك " (اش٤٤:٢٢) . و يقول فى سفر ارميا النبى " لأنى أصفح عن إثمهم ، و لا أذكرخطيتهم بعد " (أر٣١:٣٤) ... إن الله يكرر عبارة " أمحو " و عبارة " لا أذكر " .
نعم يا رب . لأنك إن كنت لا تمحو إثمى ، سيمحى إسمى من سفر الحياة !

ليتك تمحوها يا رب ، حسب وعدك الصادق . حينما قلت : هلم نتحاجج " إن كانت خطاياكم كاقرمز . تبيض كالثلج " (اش١:١٨) . و هكذا لا تذكرها لى . و لا تؤثر على محبتك لى فى المستقبل . و لا تجعلها سبباً لزوال الدالة بينى و بينك . و لا يضيع كل تاريخى الحلو معك بسببها .
هنا داود يطلب محو الخطية و ليس محو العقوبة .
كانت لخطيته عقوبتان : العقوبة الأبدية ، و هذه غفرها له الله حينما قال له ناثان " الرب نقل عنك خطيتك . لا تموت " (٢صم١٢:١٣) . أى قد نقل هذه الخطية من حسابك إلى حساب المسيح الفادى ، فلن يلحقك بسببها الموت الأبدى . و لكن كانت هناك عقوبة أرضية أخرى مثل " لا يفارق السيف بيتك ... و الإبن المولود لك يموت " و مثل أنتهاك نسائه (٢صم١٢) ... كل هذه العقوبات ، لم يتعرض لها داود فى هذا المزمور ، و لم يطلب مسامحته ... كان همه كله ، فى رفع الخطية ذاتها . و فى نتائجها عليه ...
و كانت هناك عقوبة ثالثة هى الأصعب . و هى غضب الله عليه . و كانت تتعبه بالأكثر .
وهى التى قال عنها فى المزمور فيما بعد " لا تطرحنى من قدام وجهك . و روحك القدوس لا تنزعه منى " ... أن داود يريد فى طلبته بالدرجة الأولى رضا الرب عليه ... بمحو هذه الخطية التى تقف حائلاً بينه و بين الله ... يريد أن يصطلح مع الله ، بنقض هذا الحائط المتوسط بينه و بينه ... و يحيا فى حياة الشركة الإلهية ، و قوة المسحة المقدسة فى حياته . لذلك يقول :

اغسلنى كثيراً من إثمى و من خطيتى طهرنى

هنا يقول داود " إثمى ... و خطيتى " و يكرر نفس الكلمتين فى الآية التالية . ثم يضيف إلى إثمه و خطيئته عبارة " و الشر قدامك صنعت " ... إنها صفات ثلاثية يصف بها سقطته . و يذكر أيضاً أن هذه السقطة قذارة فى حياته تحتاج إلى غسيل ، و نجاسة تحتاج إلى تطهير ... فيقول " أغسلنى كثيراً حتى أصل إلى النقاوة المطلوبة . و عبارة " كثيراً " تدل على شعوره ببشاعة خطيئته ... و طبعاً فى هذا الغسل الكثير . يحتاج إلى عصر كثير ، حتى يتنظف ، و عبارة " طهرنى " تدل أيضاً على شعوره ببشاعة الخطية .
حسن أن يشعر الإنسان أن خطيئته نجاسة تحتاج إلى تطهير .
ليس فقط خطايا الجسد كالزنى ، و إنما حتى أيضاً خطايا اللسان ، التى قال عنها الرب " بل ما يخرج من الفم ، هذا ينجس الإنسان " (متى١٥:١١) . و قال معلمنا يعقوب الرسول " ... اللسان الذى يدنس الجسم كله " (يع٣:٦) . بل إن العمل فى يوم الرب ، اعتبره الرب نجاسة فقال " نجسوا سبوتى " (حز٢٠:١٣) ... فكم بالأولى يكون الزنى ؟! كل هذا يحتاج إلى تطهير ، لأن جسد الإنسان هو هيكل الله (١كو٦:١٩) و ينبغى أن يكون مقدساً ...
الإنسان البار يشعر ببشاعة الخطية و أنها نجاسة . أما الشيطان فيقلل من قدر الخطية .
و بسبب شعور داود ببشاعة خطيئته ، قال فى المزمور السادس " تعبت فى تنهدى ، أعوم كل ليلة سريرى ، و بدموعى أبل فراشى " . و قال أيضاً " آثامى قد طمت فوق رأسى ، كحمل ثقيل أثقل مما أحتمل . قد أنتنت ، فاحت ... اليوم كله قد ذهبت حزيناً ... انسحقت إلى الغاية ... يا رب أمامك كل تأوهى و تنهدى ... ليس بمستور عنك ... قلبى خافق فارقتنى ، و نور عينى أيضاً ليس معى " (مز٣٨:٤-١٠) . لماذا كل هذا ؟

لأنى أنا عارف بإثمى و خطيئتى أمامى فى كل حين

إنه لا ينكر خطيئته ، و لا يخفيها ، و لا يبررها ، و لا يتهرب منها . بل هو يعترف بها علانية أمام الله ، و قد أعترف بها أمام ناثان النبى ... و يعترف بها أمام الجميع و أمام التاريخ فى هذا المزمور ... و يقول كل ذلك باقتناع داخلى ، و بندم و حزن و دموع ... إنه عارف بإثمه . انكشفت نفسه أمامه و أمام الله . فإذا هى تحتاج إلى غسيل و إلى تطهير ... و هو يضع خطيئته أمامه كل حين . و كما قال القديس أنطونيوس :

إن ذكرنا خطايانا ، ينساها لنا الله . و إن نسينا خطايانا يذكرها لنا الله .

فأنا أقول لك يا رب ككثرة رأفاتك أمح إثمى . أما أنا فلا أمحوه أبداً من ذاكرتى ، إنه أمامى كل حين ... أما يسحق نفسى ، و يعلمنى الإتضاع ، و يجذبنى إلى أسفل كلما ارتفعت . إنه أمامى حينما يشتمنى شمعى بن جيرا ، فأقبل منه شتيمته لأنى أستحقها بسبب خطاياى ، و أقول فى إنسحاق " الرب قال له سب داود" (٢صم١٦:١٠) . خطيئتى أمامى تجلب لى الدموع و تشعرنى بضعفى ، و تجعلنى أشفق على الساقطين ، حتى على ابشالوم .

حسن أن يضع الإنسان خطاه أمامه كل حين ، ماعدا تفاصيل الخطايا الإنفعالية و الشهوانية . هذه التى إن ظل يفكر فيها ، قد تعود إليه . إنما يكفى أن يشعر بخطيئته ، دون أن يذكر تفاصيلها . يضع خطاياه أمامه حتى لا يدين أحداً ، لأن الذى بيته من خارج ، لا يقذف الناس بالحجارة ، و بالتالى لا يقسو على أحد ، و لا يشهر بأحد ... و يتذكر خطاياه ، يحترس فى المستقبل و لا يتهاون داود يقول إثمى ، و خطيئتى ... و لا يذكر عثرة للمرأة .

إنه يركز على خطيئته ، و لا يلقى بمسئوليتها على أحد ... لا يفعل مثل أبينا آدم الذى قال للرب " المرأة التى جعلتها معى ، هى أعطتنى فأكلت " (تك٣:١٢) . فلم يقبل الرب ذلك منه ، لأن كل إنسان مسئول عن فعله أمام الله ... حسن أن داود عارف بإثمه ، و ليس بإثم غيره ...

متى يمكننا أن نعرف أنفسنا و نعرف خطايانا ؟

ألا يحتاج هذا منا ، أن نجلس إلى أنفسنا ، و نفحصها جيداً بغير تحيز و لا مجاملة ، و ندرك ماهى فيه من ضعف و من سقطات ، و نعرضها أمام الله ... و يقول له كل منا فى إنسحاق قلب : " أغسلنى كثيراً من إثمى ، و من خطيتى طهرنى ... لأنى أنا عارف بإثمى ، و خطيئتى أمامى فى كل حين " .

لك وحدك أخطأت و الشر قدامك صنعت

بعد أن يضع المرتل خطيته أمامه كل حين ، يقول : لك و حدك أخطأت ...

لا شك أن داود قد أخطأ إلى كثيرين ، من بينهم بثشبع و أوريا الحثى (٢صم١١) . و مع ذلك فإنه يقول للرب " لك وحدك أخطأت ، و الشر قدامك صنعت " . فما هى المشاعر التى تختفى وراء عبارة " لك وحدك " ؟ لعلنا نذكر من بينها ثلاثة أعتبارات هى :

١- فى شعوره بأن الخطية ضد الله ، تتصاغر و تتضاءل كل الاعتبارات الأخرى كأن لا وجود لها . إنه أخطأ ضد وصية الله ، و هكذا تمرد عليه و كسر وصاياه . و أخطأ ضد محبته و ضد أحساناته الكثيرة ... الله الذى أخذه من وسط الغنم ، و رفعه و رقاه ... الله الذى حفظه من كل مؤامرات شاول و باقى أعدائه ... الله الذى باركه ببركات عديدة ... الله الذى خلقه ، و الذى منحه هذه الحرية التى أستخدمها ضده .

إنه أخطأ إلى عين الله الطاهرة التى رأت خطيته .

من أجل هذا قال أيضاً و الشر قدامك صنعت " ... نوع من الإستهانة و عدم الخجل ، أن يخطئ الإنسان تحت سمع الله و بصره ... أمامه ، بلا حياء ... أمامه كأب ، و قدوس ! و لذلك عندما عرضت الخطية على يوسف الصديق ، فزع أمام خطورة هذا الأمر و قال " كيف أصنع هذا الشر العظيم ، و أخطئ إلى الله " (تك٣٩:٩) ... و لم يقل " و أخطئ إلى فوطيفار أو إلى زوجته " و إنما قال " أخطئ إلى الله " ... الله الموجود فى كل مكان ، و يرى كل شئ ...

يقيناً أن الإنسان و هو يخطئ . لا يجعل الله أمامه !

لا يفكر وقتها أن الله يرى و يلاحظ و يسمع – يشعر أنه واقف أمام الله ، الله القدوس ... و كل هذه خطايا أخرى ، أن يكون ناسياً لله ، و غير حاسب أى حساب لوجوده . و هذا الأمر نفسه لام داود عليه أعداء الله حينما قال " الغرباء قد قاموا على ، و العتاة طلبوا نفسى ... و لم يجعلوا الله أمامهم " (مز٥٤:٣) . و لذلك فإن الإنسان الذى يجعل الله فى فكره باستمرار ، من الصعب أن يخطئ ، لأن الله أمامه ، لا حصر له ، " استحياء الفكر " .

داود كان وقت الخطية ، فى فترة استرخاء ، بعيداً عن الصلة بالله !

لم يكن مشغولاً بالرب ، لم يكن فى مشاعر الحب الإلهى التى يقول فيها " محبوب هو إسمك يا رب ، فهو طول النهار تلاوتى " (مز١١٩) ... يقيناً لو كان فى ذلك الوقت يتلو فى إسم الله المحبوب لديه ، ما كان قد أخطأ ...

و لكن كما يقول الكتاب ، و كان فى وقت المساء ، أن داود قام عن سريره ، و تمشى على سطح بيت الملك ، فرأى ... " (٢صم١١:٢) . ترك الشعب يحارب فى الميدان ، و نام هو فى بيته ، و خرج يتمشى على السطح ... رفاهية جديدة لم يعشها من قبل ، حين كان ينزل إلى الحرب مع جنوده . و فى نفس الوقت لم يقم عن سريره ليصلى ، مثلما كان يقول " كنت أذكرك على فراشى ، و فى أوقات الأسحار كنت أرتل لك " ... و حينما أتته التجربة ، لم يكن الله أمامه ، فأخطأ إليه ... إن الشيطان يعرف الوقت الذى يضرب فيه ضربته .

ينتهز الفرصة التى يكون فيها الإنسان بعيداً عن صلواته و مزاميره و تأملاته ، بعيداً عن الوسط الروحى ، و ليس أمامه ، و حينئذ يضربه و هو غير محصن ... الله ليس فى فكره ، و لا فى قلبه ... و هنا ، حينما قال داود للرب " لك وحدك أخطأت " ، إنما يقصد أمرين : أخطأت أولاً إليك ، حينما أبتعدت عنك ، و عن مناجاتك ، و لم أجعلك فى فكرى و قلبى و حينئذ أخطأت فى الثانية، فسقطت و كسرت وصاياك .

أخطأت إليك ، لأنى احزنت قلبك المحب ...

احزنت روحك القدوس الذى من جهته أصرخ إليك قائلاً " روحك القدوس لا تنزعه منى " (مز٥١:١١) . و هكذا حطمت حياة الشركة التى تربطنى بك ، و أنفصلت عنك بخطيتى ، و فقدت الداله التى بينى و بينك . و فى ضوء العهد الجديد ، يمكن أن يقول المصلى " نجست هيكلك المقدس ، الذى هو جسدى " (١كو٣،١٧:١٦) . و هكذا أكون قد أخطأت إليك . و أيضاً فى خطيتى . ، أكون مقاوماً لروحك القدوس و عمله فى (أع٧:٥١) ، و أيضاً فى خطيئتى يقف أمامى قول الرسول " لا تحزنوا روح الله القدوس الذى به ختمتم " (أف٤:٣٠) ... إن حزنك هو أعظم خطية أرتكبها . لك وحدك أخطأت ...

و الشر قدامك صنعت ، فى كل تفاصيل الخطية :

تفكيرى فى الخطية ، و انفعالى الداخلى بها ، كان أمامك ، و إن لم يره أحد ... و تنفيذى للخطية كان قدامك أيضاً ، وكذلك كانت أمامك كل محاولاتى لاخفاء الخطية و الهروب من نتائجها . و فى كل تلك المراحل كان ضميرى نائماً قدامك أيضاً ، و كانت الخطية تتعدد و تتطور من خطوة إلى أخرى . و أنت ترى ، و يكتب أمامك سفر تذكرة (ملا٣:١٦) .

أخطأت أمامك كإله ، و أيضاً كقاض و ديان :

حقاً ما ابشع أن يرتكب الإنسان الذنب أمام قاضية ، بلا خوف ، و لا حياء ... أخطأت أمامك و أنا أعرف تماماً أننى سأقف أمامك أيها الديان العادل . و لا يحتاج إثبات ذنبى إلى شهود . فالقاضى نفسه هو الشاهد !

و لكن لعل هذا الأمر لم يكن فى ذهنى فى ذلك الوقت ! و لكن عدم وجوده فى ذهنى هو خطية أخرى ... أن أتجاهل الله ! نعم أخطأت إليك أيها الديان العادل . أخطأت إلى هيبتك الإلهية ، كما أخطأت إلى محبتك الأبوية ...

و لست أجد علاجاً لكل هذا ، سوى قولى أخطأت إليك و عبارة أخطأت إليك ليست علاجاً ، إنما هى صرخة ... إلى رحمتك .

٢- أخطأت إليك وحدك ، على الرغم من خطيئتى إلى غيرك ؟

و ذلك لأن هذا الغير ليس منفصلاً عنك ، بل كل من أخطأت إليهم هم خليقتك ، و هم أولادك ، منتمون إليك . . و الخطأ إليهم يعتبر فى نفس الوقت خطأ إليك وحدك و أنت نسبت كل ما يفعل إليهم إليك ، فقلت : مهما فعلتموه بأحد أخوتى هؤلاء الأصاغر ، فبى قد فعلتم (متى٢٥:٤٠) ، سواء كان خيراً أو شراً ... بل إن مجرد عدم عمل الخير إلى الناس ، يعتبر خطية موجهة إليك ، كعدم اطعام الجائع ، و عدم زيارة المريض ، فتعاقب هؤلاء قائلاً " الحق أقول لكم : بما أنكم لم تفعلوه بأحد هؤلاء الأصاغر ، فبى لم تفعلوا " (متى٢٥:٤٥) ... كم إذن خطية الاعتداء و الإساءة و التدنيس !

كم إذن الخطية إلى أشخاص هم أعضاء فى جسدك ؟!

ألست أنت هو الرأس ، و هم أعضاء فى جسدك . و كما يقول الرسول عنك " لأننا أعضاء جسمه ، و من لحمه و من عظامه " (أف٥:٣٠) . فالكنيسة هى جسد المسيح . من يخطئ إلى عضو فيها ، إنما يخطئ إلى المسيح نفسه و يقول له : لك وحدك أخطأت . هو الكرمة و نحن الأغصان (يو١٥:٥) . من يجرح غصناً ، إنما يجرح الكرمة ذاتها ...

٣- حتى خطيئتى ضد نفسى ، هى موجهة إليك أيضاً ...

فأنا منك ، إبن لك . و عندما يخطئ أولاد الله ، إنما يسيئون إلى الأسرة كلها ، و إلى الأب نفسه . و هكذا فإن الرسول يقول " الذى تفتخر بالناموس ، أبتعدى الناموس تهين الله ؟ لأن إسم الله يجدف عليه بسببكم بين الأمم " (رو٢،٢٤:٢٣) . فإن كان إسم الله يجدف عليه بسببك ، إلا تقول له " لك وحدك أخطأت " ؟ كم بالأولى إذن داود الذى كان يعتبر مسيحاً للرب ؟! لذلك قال له ناثان موبخاً " قد جعلت بهذا الأمر أعداء الرب يشمتون " (٢صم١٢:١٤) . هى إذن خطية موجهة إلى الرب ، جعلت أعداءه يشمتون .

٤- هناك أعتبار رابع نقوله فى مفهوم الفداء فى العهد الجديد :

لك وحدك أخطأت ، لأن كل خطية أرتكبها ، ستحملها أنت عنى ، لكي تمحوها بدمك الكريم . فأنا إنما أخطئ بها إليك وحدك ، لأنك أنت وحدك الذى تحملها ، و أنت وحدك الذى تدفع ثمنها للعدل الإلهى . و ذلك كما قال اشعياء النبى " هو مجروح من أجل معاصينا ، مسحوق لأجل آثامنا ... كلنا كغنم ضللنا ، ملنا كل واحد إلى طريقه ... و الرب وضع عليه إثم جميعنا " (اش٥٣،٦:٥) .

فأنا أخطأت إليك وحدك ، لأننى حملت كل آثامى :

ما أخطأت به إلى بشبع ، و إلى أوريا ، لم تحمله هى ، و لا هو و لا أنا ، و إنما حملته أنت . أنت القدوس ، الذىبلا خطية وحدك ، قد وضع عليك إثم جميعنا . و حينما أقول لك " و مثل كثرة رأفاتك تمحو إثمى " ، إنما أقصد أن تمحوه بدمك ، تضعه عليك ، و تدفع ثمنه نيابة عنى ، و تكون أنت الفادى الذى تبذل ذاتك عنى . لذلك أنا أعترف بخطاياى لكي تحملها عنى ، كذبيحة خطية ... إذن فأنا " لك وحدك أخطأت " أيها الفادى الحنون ...

لا يقل أحد إذن : أنا لم أخطئ ، لأنى لم اسىء إلى أى إنسان ! ...

سواء أسأت إلى إنسان أو لم تسىء ، فأنت قد أسأت إلى الله ... مثال ذلك : خطايا الفكر ، أو النية ، مجرد رغبات القلب الخاطئة ... أنت لم تضر بها أى أنسان ، و لكنك تقول عنها لله " لك وحدك

أخطأت " – أخطأت إليك يا فاحص القلوب و قارئ الأفكار ... أخطأت إليك ، لأنى رفضت شركتك أثناء أخطاء الفكر و القلب هذه . لأنك نور ، و هذه الأفكار ظلمة " و لا شركة للنور مع الظلمة " (٢كو٦:١٤) ...
الخطية أصلاً موجهة إلى الله ، قبل أن تتجه إلى أحد من الناس ...
منذ بدايتها فى الفكر و فى القلب ، و قبل أن تخرج إلى حيز العمل و التنفيذ ، هى تمرد على وصاياه ، و على محبته ... هى ضد الله فى عملها ، و فى نتائجها أيضاً ، لأنها توجد خصومة بين الله و الإنسان . و لذلك قال الرسول عن عودة الناس إلى التوبة ، إنها خدمة المصالحة " ... فقال " و أعطانا خدمة المصالحة إذن نسعى كسفراء للمسيح ، كأن الله يعظ بنا " نطلب عن المسيح : تصالحوا مع الله " (٢كو٥،٢٠:١٨) .
ما هو شعورك إذن ، حينما تدرك أنك فى خصومة مع الله ؟.
بغض النظر إن كانت الخطية ضد الناس أو ضد نفسك ، إنما هى خصومة مع الله و أنفصال عنه ... و قد شرحنا لك هذا الأمر و بالتفصيل فى كتابنا [الرجوع إلى الله] ... إذن فأنت محتاج إلى أن تعود إلى الله ، و تجدد علاقتك معه و ارتباطك به . و تبدأ ذلك بقولك له " لك وحدك أخطأت " .
نقول هذا أيضاً حتى عن خطايا الجهل :
إننا نطلب فى صلاة الثلاث تقديسات أن يغفر الله لنا سيئاتنا التى فعلناها بمعرفة و التى فعلناها بغير معرفة . لأنها سواء كانت بمعرفة أو بغير معرفة ، هى كسر لوصايا الله ، و بعد عن حياة الكمال . كما أن الجهل أيضاً أيضاً قد يعتبر خطية . فالمفروض فينا أن نعرف و أن ننمو فى المعرفة ، سواء بقراءة الكتب المقدسة أو عن طريق الصلاة ، قائلين للرب " عرفنى يا رب طرقك ، فهمنى سبلك " . و إن كنا لا نقرأ الكتب التى تحكمنا للخلاص (٢تى ٣:١٥) فإنه ينطبق علينا قول الرب " تضلون إذ لا تعرفون الكتب " (متى٢٢:٢٩) .
حقاً إنك تخطئ إلى الله ، حينما تهمل كتبه و تهمل معرفته .
المفروض فيك أن تسعى إلى معرفة الله ، و أن تجد لذة فى معرفة وصاياه ، و أن تنمو يوماً بعد يوم فى المعرفة . و تعتبر رفض هذه المعرفة خطية . اتراك تستطيع أن تقول : لا أريد يا رب أن أعرفك و لا أريد أن أعرف طرقك ! إنك لا تجرؤ طبعاً أن تقول هذا ، و لكنك تفعل ذلك عملياً ، حينما لا تستخدم الوسائل التى توصلك ؟إلى هذه المعرفة ... فإن قصرت فى معرفة الله ، و لم تهتم بهذا الأمر ، ألا تقول له " لك وحدك أخطأت " .
هوذا السيد يقول عن تلاميذه فى مناجاته للآب :
" عرفتهم إسمك و سأعرفهم ليكون فيهم الحب الذى أحببتنى به . و أكون أنا فيهم " (يو١٧:٢٦) .. إذن معرفة الله تؤدى إلى محبة الله . لأنه كيف تحب الله إن لم تعرفه ؟! لا شك أنك كلما تعرفه أكثر ، حينئذ تحبه أكثر . فالذى يقصر فى معرفة الله ، إنما يقصر فى محبته ، أو فى الوسائل التى توصله إلى محبته . ألا يقول له حينئذ " لك وحدك أخطأت " ... أو كما قال له أوغسطينوس " تأخرت كثيراً فى حبك أيها الجمال الفائق الوصف " .
هناك أمران يعطلان عبارة " لك وحدك أخطأت " :

أ- أولهما عدم أحساسنا بالخطايا الموجهة إلى الله . فنحن نسعى إلى أن نصطلح مع الناس حينما نحس أننا قد أخطأنا إليهم . و لكننا نادراً ما نبذل جهداً للصلح مع الله ، لأننا لا نحس أننا أحزنا الله بخطايانا . بينما العهد القديم يشعرنا بهذا الأمر و خطورته ، فيجعل المحرقة هى أول الذبائح " لا١" ، و هى ترمز إلى مصالحة قلب الله الغاضب على خطايانا ، و استيفاء العدل الإلهى . بينما الخطايا إلى الناس و إلى أنفسنا تمثلها ذبيحة الخطية و ذبيحة الإثم . فمصالحة الله أولاً ، ثم خلاصنا من العقوبة بعد ذلك ...
إن أخطأنا إلى إنسان ، نفكر كيف نصالحه . و لكننا لا نفكر فى نفس الوقت كيف نصالح الله !! كما لو كانت الخطية موجهة فقط ضد الناس ، و ليس ضد الله . هنا تصحح تفكيرنا عبارة " لك وحدك أخطأت ، و الشر قدامك صنعت " . لذلك أجعل مشاعرك حساسة جداً من نحو الله . و فى كل

خطية ترتكبها . فكر أولاً كيف أنك أسأت فيها إلى علاقتك بالله . و لا تجعل مشاعرك نحو الله فى المرتبة الثانية . و ليملك عليك الشعور بأنك أغضبت الله ، أكثر من شعورك بأنك أستحققت العقوبة . الله أولاً : أو كما قلنا : ذبيحة المحرقة أولاً ، قبل ذبيحتى الخطية و الإثم ...

ب- المشكلة الثانية هى أننا نكتفى بالإعتراف ، بدون الشاعر :

كل همنا أن نعترف ، و نستريح بهذا تماماً ، كما لو كان الأمر قد أنتهى ... نذكر خطاياك ، دون أن نفكر فى أن نصطلح مع الله ! دون أن نعتذر إليه ، و دون أن نفكر فى أن نصطلح مع الله ! دون أن نعتذر إليه ، و دون أن نندم على أننا أحزنا قلبه المحب ، و دون أن نقارن بين أحساناته إلينا ، و إساءتنا إليه . و نقول له فى ندم و فى إنسحاق قلب " نحن يا رب كنا ناكرين لجميلك . و ما فعلناه هو خيانة لك و لمحبتك . ماذا نقول ؟ إننا فى خجل منك ... " ... لذلك أسأل نفسك :

هل أنت حزين لأنك أخطأت ، أم أحزنت قلب الله ؟

هل كل ما نفكر فيه هو التخلص من عقوبة الخطية ، أم أنت تريد أرجاع علاقة الحب بينك و بين الله ؟ هل الإعتراف هو علاقة بينك و بين الآب الكاهن : أنت تتكلم و هو يسمع و يقرأ لك الحل ؟! أم أنك تعترف على الله فى سمع الكاهن ، و تسمع المغفرة من الله من فم الكاهن ؟ و الإعتراف على الكاهن هو علاقة بينك و بين الله أصلاً ، تقول له فيها " لك وحدك أخطأت " .

لا تفصل اعترافك عن التوبة و عن الله .

إن سر الإعتراف يسمى فى الكنيسة " سر التوبة " فاذهب إلى الإعتراف بقلب منكسر ، نادم حزين على أنه أغضب الله و أنفصل عنه . و فى سر الأعتراف حاول أن تصطلح مع الله و ترجع إليه و كل اعتراف تقوله ، اشعر أنك تقول لله فى سمع الكاهن ، و تقول له فيه " لك وحدك أخطأت " و ليكن خجلك من الله أكثر من خجلك من أب الأعتراف .

بعد قوله " لك وحدك أخطأت ، و الشر قدامك صنعت " .. قال :

لكى تتبرر فى أقوالك و تغلب إذا حوكمت

أى مهما قلته يا رب عنى ، و مهما حكمت به على ، فأنت بار فى كل أقوالك و فى كل أحكامك ، لأنى أخطأت و فعلت الشر قدامك ، و أنا مستحق لكل عقوباتك . لست أجادلك أو أناقشك أبداً ، فأنت الذى تغلب ، لأنه أمامك " يسند كل فم " (رو٣:١٩) .

أما عبارة " إذا حوكمت " فمعناها : إذا عوقبت أو نوقشت .

أو إذا قلت لك " يا رب لماذا ... ؟ " أو كما قال ارميا النبى " ابر أنت يا رب من أن أخاصمك . و لكنى أكلمك من جهة أحكامك : لماذا ... " (ار١٢:١) أنا لست استطيع أن أتكلم ، لأنى مضبوط فى الخطية ، و خطاياى كثيرة و بشعة . إن ناقشتك فى حكمك ستغلب . فالأفضل أن أصمت .

لأنى هاأنذا بالإثم حبل بى و بالخطايا اشتهتنى أمى

أى أن الخطايا لها جذورها فى طبيعتى البشرية ... هذه الطبيعة التى فسدت منذ البدء ، و ورثت أنا هذا الفساد فى طبعى ، حينما حبلت بى أمى . لست أقدم هذه الحقيقة كاعتذار ، إنما مجرد تقرير لحالتى ... إذ كيف أعتذر ، و أنت

هكذا أحببت الحق إذ أوضحت لى غوامض حكمتك و مستوراتها

فأنا لم أخطئ عن جهل ، لأنك كشفت لى كل شئ فى شريعتك ، و فى الضمير الذى وهبتنى إياه . فلم يعد شئ من الحق غامضاً أمامى أو مستوراً عنى . أعطيتنى الوصية ، قبل أن أقع فى الخطية . فماذا أقول إذن ؟! و أى عذر أتقدم به ؟! لست أقول سوى :

أنضح على بزوفاك فاطهر و اغسلنى فابيض أكثر من الثلج ...

نلاحظ هنا أن المرتل مرتبك . يقول الكلام و يعيده . ينتقل إلى معنى جديد ، ثم يرجع إلى الكلام السابق فيكرره ... لقد قال من قبل " اغسلنى كثيراً من إثمى ، و من خطيتى طهرنى " . و هو يعيد الكلام عن حاجته إلى الغسيل و التطهير ... ثم يعود فيما بعد فيقول " قلباً نقياً اخلق فى يا الله ، و روحاً مستقيماً جدده فى أحشائى " .
مامعنى قوله " أنضح على بزوفاك فأطهر ؟ " .
الزوفا كانت نباتاً مثل شرش الجزر " يغمسونها فى دم الذبيحة ، و يرشون بها للتطهير ، أى للتطهير بالدم .
و حسن أن يذكر الإنسان هذا الأمر فى صلاته ، لأنه بدون سفك دم ، لا تحصل مغفرة (عب٩:٢٢) فهو محتاج للتطهير ... و لا يأتى هذا التطهير إلا بالزوفا المغموسة فى دم الفادى الكريم ، كما قال القديس يوحنا الرسول " و دم يسوع المسيح إبنه يطهرنا من كل خطية " (١يو١:٧) ... و المرتل يذكر إنه محتاج أن يغتسل بهذا الدم ، فيقول :

"اغسلنى فابيض أكثر من الثلج "

و فى بفس الطهارة و النقاوة ، التى يكرر طلبها كثيراً فى هذا المزمور ... أنا سقطت و تدنست و تنجست . و هوذا أنا ألجأ إليك طالباً أن تطهرنى من هذه الطبيعة الفاسدة الميالة للسقوط و من هذه الخطية الحالية ... لست عن عقوبة أتكلم ، و إنما عن حاجتى إلى الخلاص و إلى النقاوة الكاملة التى فيها أبيض أكثر من الثلج . و تزول هذه الخطية من أمام وجهك ، حسب وعدك عن الشرير فى حالة توبته " إنه حياة يحيا ... لا يموت . كل خطيته التى أخطأ بها ، لا تذكر عليه " (مز١٦،٣٣:١٥) نعم لا تذكر عليه ، حسب وعدك " و خطاياك لا أذكرها " (اش٤٣:٢٥) ، لأنها قد محيت تماماً (اش٤٣:٢٥) (اش٤٤:٢٢) (ار٣١:٣٤) لا يحسبها علينا (٢كو٥:١٩) (مز٣٢:٢) . و لأنه الآن قد " أبيض أكثر من الثلج " ... تعبير عجيب ، أسمى من أن يشرح ...
يكرر داود الكلام عن حاجته إلى التطهير و النقاوة ، لأنه فى عمق الحزن بسبب سقطته . لذلك يقول للرب :

اسمعنى سروراً و فرحاً فتبتهج عظامى المنسحقة...

و فى بعض الترجمات " فتبتهج عظام قد سحقتها " أما ترجمة " فتبتهج عظامى المتواضعة " فهى ترجمة غير دقيقة . تشبهها أيضاً عبارة " انظر إلى تواضعى و تعبى " و صحتها " انظر إلى انسحاقى أو ذلى ، و تعبى " ...
هنا نتأمل أهمية الانسحاق و الحزن المقدس :

كل إنسان معرض للخطية . لا يوجد أحد أكبر من الخطية ، التى طرحت كثيرين جرحى و كل قتلاها أقوياء " (أم٧:٢٦) . فى الخطيةسقط شمشون و داود و سليمان و بطرس الرسول و غيرهم . و لكن الفرق بين الشخص الروحى و الشخص غير الروحى ، هو أن الروحى يسقط و يحزن كثيراً على خطيته ، مثلما فعل بطرس ، إذ خرج خارجاً ، و بكى بكاءاً مراً (متى٢٦:٧٥) . أما غير الروحى ، فإنه يسقط و يقابل بلا مبالاة !
و داود – لأنه شخص روحى – حزن على خطيته ...

أسباب عدم الحزن على الخطية

عدم الحزن على الخطية هو ظاهرة روحية غير صحيحة . و لهذا الأمر أسباب عديدة نذكر منها :
١- إما أن هذا الإنسان عنده شئ من البر الذاتى ، يجعله يشعر أنه لا يخطئ ...
٢- و أما أن ضميره واسع ، ، و مقاييسه الروحية غير سليمة ، فلا يشعر بعمق الخطية ، أو قد لا يحس اطلاقاً أنه أخطأ . أو أنه يحس الخطأ ، و لكنه يتساهل معه .
٣- و إما أنه لا يجلس إلى نفسه لكي يفحصها و لكي يحاسبها ، فهو فى غفوة و يحتاج إلى يقظة روحية .
٤- و إما أنه من النوع الذى يدلل ذاته و يجاملها ، و يقدم لها تبريرات عديدة فى أخطائها . فكل خطأ يرتكبه ، يضع أمامه عذراً أو عذراً تخفف منه و تستر عليه ...
٥- و إما أنه من كثرة أستمراره فى الخطية ، قد أعتادها ، و أصبحت بالنسبة إليه شيئاً طبيعياً أو عادياً ، لا غرابة فيه ، و لا يستلزم التوقف عنده ، للحكم عليه أو للحزن بسببه ... !
٦- و إما أن هذا الخاطئ يعيش فى بيئة غير روحية . فهى غير مدققة فى أفعالها . فهى لا تجعله يشعر أبداً أنه قد أخطأ ، بل قد تساعده على الخطأ و تشجعه عليه ، أو تبدأ الخطأ و تشركه معها ... و إن شعر أنه يخطئ ، تهون عليه الأمر . و لذلك فإن الذين يعيشون فى بيئة خاطئة ، لا يحزنون على خطية يرتكبونها !
مثال ذلك : إنسان يعيش فى بيئة أو فى بيت كل من فيه يشتم و يحلف . هذا يشتم أو يحلف ، لا يجد من يوبخه . بل يبدو الأمر عادياً جداً . بعكس الذى يعيش فى بيئة متدينة ، إن فعل هذا يخجل و يحزن ، لأن السامعين لا يتقبلون ذلك منه .
٧- كذلك الإنسان الذى يعيش فى لذة الخطية ، هذا لا يجد فى داخله ما يبكته أو ما يحزنه !
بل هو على العكس سعيد بالخطية ، لا يحزن على ارتكابها بل قد يحزن على تركها أو على الحرمان منها ! و داود فى بادئ الأمر لم يكن حزيناً على خطيته ، بل كان مستمراً ، ينتقل من خطوة إلى أخرى تكملها ، يرفه عن نفسه بهذه الخطية و بإكمالها " إلى أن نبهه ناثان النبى إلى بشاعة ما فعل . و حينئذ حزن داود .
حقاً ما أكثر ما يستمر إنسان سنوات فى خطيته ، دون تبكيت من ضمير ، و دون حزن على ما فعل و ما يفعل !
و كما ذكرت لكم فى كتاب (اليقظة الروحية) أن يشبه كرة تتدحرج من على جبل ، و تظل تتدرج إلى أسفل ، دون أن تملك قوة الوقوف . إلى أن يحدث مثلاً أن يعترضها حجر كبير فيوقفها بعد إنحدار طالت مدته ... !

فائدة الحزن و الإنسحاق

أخيراً استيقظ داود إلى نفسه ، و فى غمرة الحزن على سقطته قال للرن فى إلم و فى رجاء : " اسمعنى سروراً و فرحاً ، فتبتهج عظامى المنسحقة " .
اسمعنى عبارة عزاء تريحنى و تريح ضميرى من الداخل ... عبارة طيبة تدخل الفرح إلى قلبى الحزين ، و إلى نفسى المنسحقة ... و لكن الله أحياناً حينما يخلص إنساناً ، و يرد إليه سروره ، لا يسمح أن يتم ذلك بسرعة ، لأن هناك مبدأ معروفاً يقول " إن الشئ الذى تناله بسرعة ، قد تفقده بسرعة " ذلك لأنك لم تتعب فى الحصول عليه ، و لم تعرف قيمته كما ينبغى ...
لذلك يسمح الله أن المخطئ ، يستمر فى حزنه فترة ...
يبقى فترة فى الذل و الحزن و الألم و الإنسحاق ، حتى تستوفى التوبة نصيبها من الندم ، و يشعر الإنسان الإنسان ببشاعة ما قد فعل .و حينئذ . إن سمح له الله بالفرح ، لا يقوده هذا الفرح إلى الاستهتار ، لأنه مؤسس على دعامة من الإنسحاق .
و للأسف ، فإنه فى بعض الطوائف ما أن يتوب خاطئ ، حتى يهللون و يفرحون ؟، و يطلبون منه أن يقف على المنبر ليحكى (اختباره) للناس ... و هكذا يتحول بسرعة و فجأة من خاطئ إلى واعظ !! و لكن الكتاب لم يعلم بهذا ...
إن الحزن مفيد للإنسان روحياً ، لذلك يسمح الله به :
و قد ضرب لنا الكتاب مثلاً بحزن داود ، الذى بلل فراشه بدموعه ، و بحزن بطرس الرسول الذى بكى بكاءاً مراً . و ذكر لنا أيضاً الذل الذى كابده شمشون إلى أستجاب الله لصلاته أخيراً . و ما أكثر الآيات التى ذكرت فى الكتاب عن البكاء والدموع و الحزن المقدس ... و لكنى سأذكر هنا مثالاً واضحاً بارزاً ، و هو :
فرح بولس الرسول بحزن أهل كورنثوس والشاب الخاطئ :
فى الرسالة الأولى أمر أن يسلم هذا الخاطئ للشيطان لإهلاك الجسد ، لك تخلص الروح فى يوم الرب (١كو٥:٥) . و وبخ أهل مورنثوس لأنهم لم يعزلوا الخبث من وسطهم ، و لأنهم " لم ينجوا " (١كو١٣،٥:٢) . و فى الرسالة الثانية يذكر أنه أحزنهم ، و يعلق فرحة بحزنهم ، فيقول : " الآن أنا أفرح ، لا لأنكم حزنتم ، بل لأنكم حزنتم للتوبة ، لأنكم حزنتم بحسب مشيئة الله ... " (٢كو٧:٩)
و يقول عن هذا الحزن " لكي لا تتخسروا منا فى شئ . لأن الحزن الذى بحسب مشيئة الله ينشئ توبة لخلاص بلا ندامة ... فإنه هو ذا حزنكم هذا عينه بحسب مشيئة الله ، كم نشأ فيكم من الإجتهاد ... بل من الغيرة ... " (٢كو٧:٩-١١) .
كذلك ذلك الشاب المخطئ نفعه الحزن ، و نفعه العزل و العقوبة ، حتى أن الرسول عاد ليقول " يكفيه هذا القصاص ... حتى تكونوا بالعكس تسامحونه بالحرى و تعزونه، لئلا يبتلع مثل هذا من الحزن المفرط " (٢كو٧،٢:٦) .
مسكين الإنسان الذى يخطئ ، و لا يحزن على خطيئته ، و لم يجد كذلك من يحزنه ، و يوبخه على خطيئته ... و هكذا مرت الخطية بسهولة بلا ندم ، و بلا مذلة ... و مسكين أكثر الإنسان الذى لا يقبل التوبيخ ، و يحزن بسببه لا بسبب الخطية ! كيف يصل مثل هذا الإنسان الخاطئ إلى التوبة ؟!
و إلى الندم و الحزن المقدس ... إننى أتأمل أولئك الذين حزنوا على خطاياهم و أتعجب ...
و بخاصة الذين شهرت خطاياهم ، و سجلت فى كتب !
من منا لا يذكر خطيئة داود التى ذكرت فى الكتاب المقدس (٢صم١٢،١١) ، و التى سجلها داود فى مزاميره ، مصحوبة بدموعه ، و يرددها الناس حينما يصلون ، على الرغم من أنها نقلت عنه و محيت و أبيض أكثر من الثلج .
و من منا لا يذكر إنكار بطرس ، و يجعله كثير من الوعاظ موضوعاً لعظاتهم ، على الرغم من توبة بطرس و تعبه الكثير فى الكرازة و التبشير ... ! و من منا لا يذكر زنا رحاب ، على الرغم من

خلاصها و ذكرها فى سلسلة الأنساب ... و مع ذلك مازال ؟إسمها هو راحاب الزانية ، ليس فقط فى العهد القديم (يش٦:١٧) بل حتى فى العهد الجديد أيضاً (عب١١:٣١) فى قائمة شخصيات الإيمان ! أترانا سنناديها باسم راحاب الزانية فى الأبدية أيضاً ؟؟
بل لنأخذ مثال القديس أوغسطينوس فى أعترافاته ...
لقد كتب اعترافاته فى كتاب قرأته جميع الأجيال من بعده ... مع أنه صار من آباء الكنيسة المشهورين الذين دافعوا عن الإيمان ، و له مؤلفات مملوءة بالتأملات الروحية العميقة التى أستفاد بها الملايين ، إلا أن خطيته ليست فقط أمامه كل حين ، بل أمام الكل فى جميع الأجيال منشورة و مشهورة .
كذلك أيضاً نذكر القديسين الذين شهرت خطاياهم ،
على الرغم من أنهم تابوا و صاروا من قديسى التوبة ، ووصل بعضهم إلى الرهبنة ، و إلى السيامة ، و إلى منصب الرعاية الكبرى ... و من بين هؤلاء القديس موسى الأسود ، و القديس كبريانوس رئيس الأساقفة و القديسين ، و القديسة مريم القبطية ، و القديس بيلاجية ... و خطايا هؤلاء القديسين ، و القديسات مسجلة يدرسها الكبار و الصغار ...
و ماذا نقول نحن عن أنفسها الذين خطايانا مستورة ، و مع ذلك لم نبك و نحزن عليها !!
مع أننا أعترفنا بها فى السر و لا يعلم بها أحد . و إن تصادف و اشار أحد إلى شئ منها ، و لو من بعيد ، و لو عن طريق التلميح ، نثور و نضج ، و نقيم الدنيا و نقعدها ، و لا نعترف أننا أخطأنا بشئ ! حتى الاعتراف السرى على الكاهن نستثقله أحياناً و نستصعبه ! أين التوبة إذن و الحزنالمقدس ؟ هوذا القديس مقاريوس الكبير يقول " احكم يا أخى على نفسك قبل أن يحكموا عليك " . لعله أقتبس هذا من (١كو١١:٣١) . أترانا أيضاً نقبل التأديب و نرضى به كما قال الرسول : " نؤدب من الرب ، لكي لا ندان مع العالم " (١كو١١:٣٢) .
على الأقل نمارس شيئاً من هذه الكآبة المقدسة التى قال عنها الكتاب " بكآبة الوجه يصلح القلب " (جا٧:٣) . نمارس الحزن المقدس الذى نشعر فيه أننا بالخطية قد سقطنا ، و أنفصلنا عن الله ، و عن شركة الروح القدس ، و أحزنا الروح القدس ، و الملائكة و القديسين ... و لو إلى حين ... و نندم و نبكى على خطايانا .
إن ندم داود ، لم يكن ندماً عابراً ، بل مستمراً ...
لم يكن ندماً إلى لحظة و أنتهى ، بل إنه يقول " أعوم فى كل ليلة ، و بدموعى أبل فراشى " (مز٦) لاحظ عبارة – كل ليلة – و يقول أيضاً (خطيئتى أمامى فى كل حين " . و عبارة – كل حين – تعنى الاستمرارية . إن لذة الخطية كانت إلى لحظة أو لحظات ، أما الندم عليها فكان كل حين ، إنها أفقدته عزاءه الداخلى ... لذلك صرخ إلى الله قائلاً " اسمعنى سروراً و فرحاً فتبتهج عظامى المنسحقة " . و لا يقصد عظام الجسد ، و إنما رمز ذلك روحياً إلى إنسحاق نفسه .
يذكر المرتل الوسيلة التى تبتهج بها عظامه المنسحقة فيقول :

"اصرف وجهك عن خطاياى و أمح كل آثامى"

" قلباً نقياً اخلق فى يا الله . و روحاً مستقيماً جدده فى أحشائى . لا تطرحنى من قدام وجهك . و روحك القدوس لا تنزعه منى " .
" أمنحنى بهجة خلاصك ، و بروح رئاسى عضدنى " .
فهو يريد أن خطاياه ، لا تكون أمام عينى الله باستمرار أى لا يذكرها له الله ، بل يمحوها كأن لم تكن . و لكن الوسيلة التى بها ينسى الله الخطايا ، هى أن يتوب الخاطئ ، و يصير له قلب نقى و روح مستقيم .
فطالما هو مستمر فى خطاياه ، تظل هذه الخطايا قائمة أمام الله ، لا يصرف وجهه عنها . إذن لابد من التوبة و نقوة القلب و حياة الإستقامة . و هنا يرى المرتل أن هذه النقاوة ليست فى مقدور

إرادته الضعيفة ، فقد جرب نفسه ، و عرف كم هو ساقط ، و كم هو سهل الإنجذاب إلى الخطية .
إذن لابد من معونة إلهية ليحيا فى النقاوة . و لذلك يقول " قلباً نقياً اخلق فى يا الله ... " .
و عبارة " اخلق " لا تعنى مجرد اصلاح القلب و ترميمه !
بل تعنى أنه يريد قلباً آخر غير هذا القلب القديم الذى أخطأ ، قلباً من عند الله ، عبارة عن " خلقة جديدة " (٢كو٥:١٧) . فلا يبقى القلب كما هو ، و تضاف إليه بعض المشاعر و كأنها " رقعة جديدة على ثوب عتيق " (متى٩:١٦) . و إنما المطلوب هو خلق قلب جديد لا علاقة له بالماضى كله ، بما فى ذلك الماضى من ذكريات و أفكار و إنفعالات .
و إلى جوار القلب الجديد ، روح مستقيم .
داود إذن يريد الإصلاح من الداخل ، القلب و الروح ، وليس مجرد اصلاح التصرفات الخارجية ، فكثيراً ما يغير الإنسان تصرفاته الخارجية ثم يرجع مرة ثانية إلى الخطية ، لأن القلب نفسه ليس سليماً ، و الروح ليس مستقيماً . و لكن المرتل يهتم هنا بداخله فيقول " فى أحشائى " .
و يطلب إلى جوار روحه المستقيم ، عمل روح الله فيه .
فيقول للرب " روحك القدوس لا تنزعه منى " ... حقاً إننى لم أطع روحك ، و لم أشترك معه فى العمل ، بل قاومته و أحزنته . و مع ذلك " لا تنزعه منى " . أستبقه فى داخلى ، يبكتنى على خطية (يو١٦:٨) ، و يرشدنى إلى كل حق ، و يذكرنى بكل ما قلته لى (يو١٦:١٣) (يو١٤:٢٦) ، فنزع روحك منى ، معناه أنك قد طرحتنى من قدام وجهك ، و قطعت صلتك بى تماماً ... !
عضدنى إذن بروحك لكيلا أفشل ... و ماذا أيضاً ؟

" فأعلم الأثمة طرقك و المنافقون إليك يرجعون "

يجب أن نأخذ هذه الطلبة بمعنى رمزى ، و ليس بمعنى حرفى . فمن غير المعقول أن المصلى و هو منكسر القلب و شاعر بخطاياه ، ينتقل فجأة إلى موقف المعلم و المرشد ! أما أنت فحينما تقول هذه العبارة فى صلاتك ، قل فى ذهنك : هؤلاء الأثمة ليسوا سوى حواسى و أفكارى و مشاعرى . أما المنافقون فأعنى بهم المظاهر التى أبدو بها أمام الناس باراً و أنا مملوء بالخطية !! و إذ يتذكر الإنسان كلها أمام الله ، يصرخ قائلاً :

نجنى من الدماء يا الله إله خلاصى

و لعلك تقول : " و ما شأنى بهذه الطلبة ، و أنا لم أسفك دماً طوال حياتى ؟! " . أقول لك : بل هذه الطلبة تخصك و تخص كل إنسان على وجه الأرض ، إذا فهمنا كلمة الدماء بمعنى آخر و هو : النفوس التى هلكت ، و من يدك يطلب الله دمها :
و لعل هذا يوافق ما ورد فى سفر حزقيال النبى ، حيث يقول الرب "... فذلك الشرير يموت بذنبه ، أما دمه فمن يدك أطلبه " (حز٣٣:٨) . مثل هذا الدم هو الذى تطلب من الله أن ينجيك منه ... إذن يمكن أن يكون المقصود بالدماء فى هذه الآية ، هو المعنى الروحى و ليس مجرد المعنى المادى ... الذين يتسببون فى هلاك غيرهم ، يطالبهم الرب بدمائهم :
من أمثلة ذلك كل من يعثر غيره و يوقعه فى الخطية ، حتى لو لم يخطئ معه ... من أمثلة ذلك الفتاة التى تعثر شاباً فيسقط فى الخطية بالفكر و الشهوة أو بالفعل بسببها ، حتى دون أن تسقط هى معه ... ومن أمثلة ذلك بلعام الذى ألقى بعثرة أمام بنى إسرائيل (رؤ٢:١٤) . و بالمثل من يعثر غيره بأفعاله الخاطئة ، فيوقعه فى خطية الإدانة و ما يصحبها من غضب ... أو من يثير غيره و يوقعه فى الغضب ، دون أن يغضب هو .
كذلك تنطبق هذه الطلبة على من ينشرون البدع و الهرطقات و التعليم الخاطئ .

فإن كان الناس يمكن أن يهلكوا روحياً و يفقدوا أبديتهم ، عن طريق البدعة و الهرطقة ، إذن لابد أن يطالب بدمائهم من أخترع هذه البدع و من نشرها و من علم بها ... ترى كم من الدماء سوف يطالب بها أريوس و أوطاخى و نسطور ، و كذلك من ينشرون أفكار شهود يهوه و أمثالهم ...
لأجل هذا كله يقول الرسول " لا تكونوا معلمين كثيرين يا أخوتى ، عالمين أننا نأخذ دينونة أعظم ، لأننا فى اشياء كثيرة نعثر جميعنا " (يع٣،٢:١) . فليحترس إذن الذين ينشرون تعاليم خاطئة ، لأنهم بذلك ينالون دينونة أعظم ، و فيها يطالبهم الله بدماء كل من أعتنقوا تعاليمهم ... كم و كم إذن تكون دينونة من ينشرون الإلحاد بالتعاليم و بالكتب و بالسلطة و بالمثل كل من يثيرون الشكوك فى الدين و فى العقيدة و يفسدون إيمان كثيرين يطالبهم الله بدمائهم ...
تنطبق هذه الطلبة أيضاً على الذين يهملون فى أمور الرعاية و الخدمة و التعليم .
و هكذا يقول الرب فى سفر حزقيال النبى " إن لم تتكلم لتحذر الشرير من طريقه ، فذلك الشرير يموت بذنبة . أما دمه فمن يدك أطلبه " (حز٣٣:٨) و ينطبق هذا على كل الذين يعملون فى الرعاية ، كل منهم فى نطاق اختصاصه ... وفى طقس رسامة البطريرك يقال له " تسلم عصا الرعاية من يد راعى الرعاة الذى أئتمنك على رعيته . و من يدك يطلب دمها " ... لذلك فالسلطة يسمونها أيضاً مسئولية ، لأن الله سيسأل صاحبها عن النفوس التابعة له ...
و بالمثل ينطبق هذا على الوالدين فى تربية أبنائهما .
سيطالبهما الله بدم كل إبن أهملا فى تربيته . و من الأمثلة الواضحة فى ذلك " عالى الكاهن " و ما أوقعه الله عليه من عقوبة شديدة ، لأنه أهمل فى تربية أولاده ، على الرغم من أنه وبخهم على فسادهم و لكن بطريقة هينة غير حازمة لم تستطع أن تأتى بالتأثير المطلوب . و ينطبق هذا الكلام بالمثل على المرشدين الروحيين و خدام التربية الكنسية ، و كل من أؤتمنوا على تربية النشئ ، كالمشرفين على الملاجئ مثلاً ...
و لعل هذا ينطبق أيضاً على الذين يتخذون موقفاً سلبياً .
أى الذين أمامهم فرصة لإنقاذ الآخرين و لم يتقدموا لإنقاذهم ، مادامت لديهم القدرة على ذلك ... فليس الخطأ فقط فيمن يقودون غيرهم إلى الهلاك ، فيطالبون بدمائهم ... أتراك بعد كل هذا لا تقول " نجنى من الدماء يا الله ، إله خلاصى " ...
جميلة و عميقة هذه العبارة : إله خلاصى .
و ما أكثر ما يتحدث داود فى المزامير عن الله مخلصه ، فيقول " خلصنى يا رب فإن البار قد فنى " ، " اللهم بإسمك خلصنى " ، و أيضاً تلك العبارة التى نقتبسها منه فى صلوات البصخة " قوتى و تسبحتى هو الرب ، و قد صار لى خلاصاً " ... و يتحدث داود كثيراً عن تفاصيل هذا الخلاص الذى ناله ، و يتغنى به ... و السيدة العذراء نفسها و تغنيت بهذا الخلاص أيضاً فى تسبحتها المشهورة فقالت " ... و تبتهج روحى بالله مخلصى " (لو١:٤٧) .
أتراك أنت أيضاً : تبتهج روحك بالله مخلصك ؟
أولاً تطلب منه وحده الخلاص . ثم تتأمل فى كل المواقف التى خلصك الله فيها ، و تشكره عليها و تبتهج بالرب . تتذكر كم خلصك من الخطية و من العقوبة ، و من الناس الأشرار ، و من الهلاك الأبدى ... و كم غفر لك ...
تأمل فى المزمور أيضاً ، كيف أنه نتيجة لهذا الخلاص يقول المرتل :

فيبتهج لسانى بعدلك

كثيرون يبتهجون برحمة الله و يتغنون بها ، و يطلبونها .
و لكن ما أجمل أن نتغنى بعدل الله أيضاً ، و نبتهج به ...

جميل جداً أن نسمع داود النبى يقول للرب فى آخر مزامير باكر " استجب لى بعدلك " (مز١٤٣:١) و لم يقل برحمتك . لأن عدل الله أيضاً هو عدل رحيم ... عدل الله يعرف تماماً قوة أعدائنا الشياطين ، و عنف الخطية فى هجومها ، و كيف أنها طرحت كثيرين جرحى . ، و كل قتلاها أقوياء " (أم٧:٢٦) ... و يعرف أيضاً طبيعتنا الماثلة غير الثابته ، و متاعب أرتباطنا بالجسد و بالمادة " يعرف جبلتنا ... يذكر أننا تراب نحن " (مز١٠٣:١٤) .
لذلك فإن الله بعدله ، يقدر ظروفنا و يرحمنا .
إذ يرى آن لنا عدوين : العدو الخارجى ، و العدو الداخلى أيضاً . و قد صرخ القديس بولس الرسول من العدو الداخلى فقال " الشر الذى لست أريده فأياه أفعل .. فإن كنت ما لست أريده أياه أفعل ، فلست بعد أفعله أنا ، بل الخطية الساكنة فى " (رو٧:١٩-٢٠) . و يختم شكواه هذه بقوله " أرى ناموس الخطية ... ويحى أنا الإنسان الشقى ... من ينقذنى من جسد هذا الموت " (رو٧،٢٤:٢٣) .
لا شك أن الله بعدله ، يقدر كل هذه المحاربات ، و يرحم ...
و إذ يرحم ، يبتهج لساننا بعدله .
و حسن هنا أن نرى اللسان و هو يستخدم للبر و ليس للخطية ... كم قد شكا منه الكثيرون ، و قال عنه القديس يعقوب الرسول إنه " عالم الإثم ... شر لا يضبط ، مملوء سماً مميتاً " ، " لم يستطع أحد من الناس أن يذلله " (يع٣:٦-٨) . و لكن اللسان هنا يمكن أن يستخدم للخير " به نبارك الله الآب " (يع٣:٩) و نبتهج بعدله ... و نغنى للرب ، و نسبحه ...
درب نفسك إذن على الاستخدام الطيب للسان ، و تذكر قول الكتاب :
" فم الصديق ينبوع حياة " (أم١٠:١١) .
و أيضاً " فى شفتى العاقل توجد حكمة " (شفتا الصديق تهديان كثيرين " (أم١٠،٢١:١٣) . و نقرأ فى سفر النشيد قوله منها الفهم و الحكمة ، و كلمات البركة و العزاء ، و كلمات التسبيح و الصلاة ، و كلمات النصح و الإرشاد ... و لكن متى يحدث هذا كله ؟ يقول المرتل :

افتح يا رب شفتى فينطق فمى بتسبحتك

حينما يفتح الله فمك ، طبيعى أن يخرج منه كلام طيب ، و حينئذ شفتاك تقطران شهداً ... و لكن أسأل نفسك بكل صراحة و جدية :
هل فى كل مرة تتكلم ، يكون الله هو الذى يفتح فمك ؟
أم أن فمك ينفتح بعوامل بشرية ، و بانفعالات خاطئة ؟ قل للرب إذن : افتح يا رب شفتى ، لأنى كثيراً ما تكلمت فندمت . و لأن كثرة كلامى لا تخلو من معصية (أم١٠:١٩) ... داود يطلب أن يفتح الله فمه ، لأنه ببشريته فتح فمه من قبل ، فدبر مؤامرة لقتل أوريا الحثى (٢صم ١٠) . فيريد أن يعوض الأمر بأن يترك للرب أن يفتح فمه ليسبحه .
و أيضاً لأنه فى خطيته ، لا يستطيع أن يفتح فمه بالتسبيح ، إذ لا توجد دالة بينه وبين الله ... ! لذلك يطلب من الله أن يفتح فمه بالتسبيح . يمنحه الدالة و الحب و المغفرة ، حتى يستطيع أن يسبح الرب ... حقاً إن الخطية تستطيع أن تغلق أفواهنا عن الكلام مع الله ، بل أيضاً عن الكلام عن الله . و كما يقول المرتل أيضاً :
كيف نسبح تسبحة الرب فى أرض غريبة ؟! (مز١٣٧:٤) .
كيف نسبحه و نحن فى سبى الخطية ، و قد فقدنا الدالة و الحب ، و علقنا قيثاراتنا على الصفصاف
إن الخاطئ يخجل من الكلام مع الله ... و كثيراً ما يتذكر قول الكتاب : "ذبيحة الأشرار مكرهة للرب " (أم١٥:٨) . لذلك يطلب من الرب أن يفتح فمه و يطلب منه أن يصرف وجهه عن خطاياه ، لترجع الدالة و يرجع الحب ، و بالتالى يرجع التسبيح .

و هكذا يكون التسبيح أيضاً للتائبين . و ليس فقط لمن ارتفعوا فى الحب الإلهى ... فالتوبة و المغفرة ينتجان الحب أيضاً (لو٧:٤٧) .

ينطق فمى بتسبيحك

التسبيح هو عمل السارافيم (اش٦) ... و هو أرقى درجات الصلاة :
حيث ينسى الإنسان ذاته ، و لا يطلب أى طلب ، إنما ينشغل بالتغنى بصفات الله الجميلة ، و ينشغل بتمجيده ... و هذا دليل على محبة الإنسان لله ، كما قال داود أيضاً : " محبوب هو إسمك يا رب ، فهو طول النهار تلاوتى " ... فكان المرتل الذى بدأ بطلب الرحمة لنفسه ، و طلب لها التطهير و الغسيل و التنقية و الاستقامة و النجاة من الدماء ، ما أن يصل الآن إلى الله ، إله خلاصه ، حتى تتحول مشاعره من الخوف إلى الابتهاج ... و ينسى نفسه لكي ينشغل بتسبيح الله الذى صنع معه كل هذا الخلاص .
هل أختبرت فى صلواتك عنصر التسبيح ؟
هل تدربت كيف تتأمل فى صفات الله الجمنيلة ، إلهنا الطويل الروح ، الكثير الرحمة الجزيل التحنن ... إلهنا القدوس الكامل ، غير المحدود ... الأزلى الأبدى ، الذى لا يحد ... حسب كثير من صلوات القداس الغريغورى ؟ ... أم أنت لا تزال منشغلاً بنفسك ، لا تقف أمام الله إلا لتطلب طلباً ... !
هل أنت فى صلواتك منشغل بالله و ملكوته ؟ ... أم بنفسك ؟
" اطلبوا أولاً ملكوت الله و بره " (متى٦:٣٣) هكذا علمنا الرب ... أن الإنسان الذى دخل فى نطاق الحب الإلهى ، يجعل الله بالنسبة إليه هو الكل فى الكل (١كو١٥:٢٨) ... و يقول القديس بولس الرسول " فأحيا – لا أنا بل المسيح يحيا فى " (غل٢:٢٠) .
هل أختبرت عبارة " لا أنا " فى صلاتك ؟
إن أختبرتها فى صلواتك ، فلابد ستختبرها فى حياتك ، فتقول " أحيا ، لا أنا " ... و إن أختبرتها فى حياتك ، لابد ستختبرها أيضاً فى صلاتك ... إبدأ إذن فى أن تدرب نفسك على بعض صلوات ، و لو قصيرة و لو قليلة ، تنسى فيها نفسك ، و لا تطلب طلباً سوى ملكوت الله ، و تتغنى بصفة أو أكثر من صفات الله ، فتحدث الله عن ذاته هو ، لا عن ذاتك أنت ...
و إن لم تستطع ، و كنت ثقيل الفم و اللسان فى هذه الصلوات ، اطلب معونة الرب لتدريبك ، و قل له فى صراحة و فى ضراعة " أفتح يا رب شفتى ، فينطق فمى بتسبيحك " .
يا ليتك تعمل على تكريس شفتيك لله :
و إذا تكرست شفتاك لله ، أعنى للحديث معه و الحديث عنه ، حينئذ سيتخلص فمك من الأحاديث العالمية و من أخطاء اللسان ، و لا ينطق فمك إلا بكلمة حياة . و حينئذ أيضاً ستنمو فى صلواتك ، و فى حياة التسبيح . و ربما يصمت فمك ، ليتكلم قلبك مع الله ... يصمت مع الناس ، ليتكلم مع الله و بتكريس الشفتين للرب ، تصل أيضاً إلى تكريس الفكر له .
و تصل إلى تكريس القلب أيضاً . و تستطيع أن تقول كما نقول فى التسبحة اليومية : " قلبى و لسانى يسبحان القدوس " . نعم يشترك القلب و اللسان معاً ، لأن الله لا يريد الشفتين فقط ، بل القلب أولاً ... و فى تسبيح فمك ، تشترك حواسك أيضاً ... تخجل من أن تخطئ فى جو هذا التسبيح و بهذا يتكرس الإنسان كله ، فماً و قلباً و حواساً و فكراً .
أن بدأت بالقلب " من فيض القلب يتكلم اللسان " (متى١٢:٣٤). و هنا تشترك الشفاه مع القلب و تعبر عن مشاعره . و إن كان القلب لم يصل بعد إلى هذا الكمال ، تصرخ الشفاه إلى الله ، فيرسل المعونة و النعمة التى تقدس القلب و الفكر معاً ، و تقدس الروح أيضاً . لأنه الله يريد الإنسان من الداخل ، و يقول : " يا ابنى أعطنى قلبك " (أم٢٣:٢٦) . و هكذا يقول المرتل :

الذبيحة لله روح منسحق

إنه يعرف أن " الله يسر بالمحرقات " إن كانت مجرد محرقات لم يشترك فيها القلب و يسر أيضاً بمجرد العبادة الخارجية ، إن لم تكن نابعة من القلب ، و تعبر عن شعور حقيقى . فهوذا الرب يقول فى سفر اشعياء النبى عن هذه العبادة الباطلة .

"أتخمت من محرقات كباش و شحم مسمنات ... لا تعودوا تأتون إلى بتقدمة باطلة " (اش١٢،١:١١) .

و يعبر الله عن رفضه لكل هذه العبادة الباطلة بتفاصيلها فيقول " البخور هو مكرهة لى ... لست أطيق الإثم و الاعتكاف ... رؤوس شهوركم و أعيادكم أبغضتها نفسى ... صارت على ثقلاً ، مللت حملها . فحين تبسطون أيديكم ، أستر عينى عنكم . و إن أكثرتم الصلاة لا أسمع . أيديكم ملآنة دماً " (اش ١:١٣-١٥) .

العيب إذن ليس فى البخور و لا الأعياد و لا الصلاة ، إنما فى الأيدى الملآنة دماً ...

و هكذا يقول الكتاب " ذبيحةالأشرار مكرهة للرب " (أم :٨). إذن ليست كل ذبيحة مقبولة ، و لا كل صلاة مقبولة ، و لا كل صوم مقبولاً ... فالله ينظر إلى القلب ، ثم بعد ذلك يقبل الذبيحة أو لا يقبلها . إثنان صليا فى الهيكل ، فلم يقبل الله صلاة الفريسى ، بينما قبل صلاة العشار فخرج مبرراً دون ذاك (لو١٨:١٤) . لأنه كان يصلى بروح منسحقة و قلب منكسر ...

تكلم داود عن العبادة الباطلة المرفوضة فقال :

"لأنك لو آثرت الذبيحة ، لكنت الآن أعطى . و لكنك لا تسر بالمحرقات " ... أى أن المسألة ليست مجرد شكليات ! أخطئ ، فأقدم ذبيحة عن خطيتى ، فيغفر لى ، و ينتهى الأمر ... ! بدون توبة ، بدون ندم و انسحاق قلب ، بدون مشاعر داخلية . مثل هذه المحرقات لا يسر بها الله ، لأن القلب و الروح لم يشتركا فيها ...

إذن ماذا كانت المشاعر المرتبطة بالمحرقة المقبولة ؟

١- أول شئ أراده الله هو أن يشعر الخاطئ بخطيئته ، متأكداً من أنه لولا خطيته ما كانت تقدم الذبيحة .

٢- و يشعر أيضاً أن أجرة الخطية هى موت (رو٦:٢٣) ... و أن الله قال لأبينا أدم عن عقوبة الخطية " موتاً تموت " (تك٢:١٧) . و عرفت حواء هذه العقوبة تماماً ، أى الموت (تك٣:٣) . و هكذا ساد المبدأ اللاهوتى الذى يقول :

" بدون سفك دم لا تحصل مغفرة " (عب٩:٢٢) .

٣- و هكذا يشعر الخاطئ أنه أخطأ ، و أنه يستحق الموت جزاء لخطيته . غير أن الله من فرط رحمته قبل مبدأ الكفارة و الفداء ، بأن تموت هذه الذبيحة أو هذه المحرقة عوضاً عنه ، و هى ترمز إلى السيد المسيح الذى هو " حمل الله الذى يرفع خطية العالم " (يو١:٢٩) . " كلنا كغنم ضللنا ، ملنا كل واحد إلى طريقه ، و الرب وضع عليه إثم جميعنا " (اش٥٣) ... لذلك " هو كفارة لخطايانا ... ليس لخطايانا فقط ، بل لخطايا كل العالم أيضاً " (١يو٢:٢) .

٤- و هكذا يشعر مقدم المحرقة ، أن هذا الحيوان البرئ إنما يموت عنه هو ... فلولا خطيئته ما كان يذبح و تلتهبه النار حتى يتحول إلى رماد (لا٦:٩-١٣) ... و هذه النار ترمز إلى العدل الإلهى الذى يأخذ كاملاً آلام المسيح الذى مات عنا ، و دفع ثمن العدل الإلهى كاملاً ... و هنا تثبت فى عقل مقدم الذبيحة حقيقة لاهوتية واضحة فى مبدأ المحرقة و الكفارة و هى :

برئ يحمل خطية مذنب ، و يموت عنه ليوفى العدل الإلهى .

فهذا الحمل المقدم ليكون محرقة ، هو حمل وديع برئ ، ليس خاطئاً ، إنما هو " حامل خطية غيره " ، تؤخذ نفسه عوضاً عن نفس ذلك الخاطئ مقدم الذبيحة ... و هنا يمتلئ قلب مقدم الذبيحةبالألم و

الندم لأنه تسبب فى موت هذه الفدية ، فى ذبحها و سلخها و حرقها بالنار ... إنها مشاعر يجب أن تكون فى قلبه ، و إلا فقد روحانية الذبيحة .
أترى هذه المشاعر فى قلبك و أنت تتقدم للتناول ؟
و هل هذه المشاعر تكون فى قلبك فى أسبوع الآلام ، و فى يوم الجمعة الكبيرة ، و فى صلاة الساعة السادسة التى تصليها كل يوم ؟ و هل هذه المشاعر تكون فى قلبك أثناء الاعتراف و تحليل الكاهن ، و تحويل خطاياك إلى حساب المسيح ، ليدفع الثمن عنها ؟ و هل أثناءها تسمع الكلمة التى قالها ناثان لداود " الرب قد نقل عنك خطيئتك . لا تموت " (٢صم١٢:١٣) . نقلها عنك إلى المسيح . و لا تموت ، لأنه هو المحتمل الموت عنك ...
و هل فى كل هذا ، يكون لك الروح المنسحق و القلب المنكسر ؟
إنك تفرح بمغفرة الخطية . و لكن ينبغى أن يكون لك القلب المنكسر الذى يعرف الأسلوب الذى غفرت به خطيته ، و كيف أنها حملت لغيره . فى يوم الفصح كان يفرحون بالخلاص عن طريق الدم المرشوش على الأبواب ، و لكنهم فى نفس الوقت كانوا يأكلون الفصح على " أعشاب مرة " (خر١٢:٨) متذكرين خطيئتهم ، و الدم الذى سفك عنهم ، و رمزه ...
ما مركز " الأعشاب المرة " فى حياتك ؟
كثيرون يفرحون بالخلاص العظيم الذى قدمه السيد المسيح عندما وفى العدل الإلهى ، و يغنون قائلين " يبتهج لسانى بعدلك " . و لكنهم ينسون ما قاله المرتل فى نفس المزمور عن الروح المنسحق و القلب المنكسر . هم يفكرون فى أنفسهم فقط كيف نالوا الخلاص . و للأسف لا يفكرون فى المخلص المحب ، كم تألم لكي يخلصهم ... !
أن الروح المنسحق هو فى نفس الوقت حساس و محب .
حساس جداً بكم فعل هو من خطية ، و بكم فعل الرب به ... فى حساسيته ، يضع خطيته أمامه فى كل حين ، و يضع آلام المخلص أمامه فى كل حين أيضاً . يفرح بالخلاص و ينكسر قلبه بسبب الدم الكريم المسفوك عنه . حقاً إن ذبيحة المسيح قد قدمت خلاصاً كاملاً للكل . و لكن لا يستفيد منه سوى التائبين المعترفين بخطاياهم ، المنسحقى القلب بسببها ، الذين تنكسر قلوبهم بسبب كسرهم للوصايا ، و بسبب ما حملوه للمسيح فى فدائه لهم ...
أما عن المحرقات التى لا يسر بها الله فهى :
المحرقات التى تقدم بدون مشاعر قلبية كالتى ذكرناها ، أو التى تقدم بدون توبة و ندم و عزم أكيد على تغيير السيرة ، أو التى تقدم بكبرياء و با فتخار ، مثل صلاة الفريسى (لو١٨) ، أو التى تقدم بدون فهم لرموزها و للثمن المدفوع عنها ، أو التى تقدم من قلب قاس غير حساس .

أما القلب المنكسر و المتواضع فلا يرذله الله

كثيرة هى آيات الكتاب الكتاب عن وقوف الله إلى جوار المتضعين " الرب يشفى المنكسرى القلوب ، و يجبر جميع كسرهم " (مز١٤٧:٣) . هو " الساكن فى الأعالى ، و الناظر إلى المتواضعين " (مز١١٣:٥) الذى " أنزل الأعزاء عن الكراسى ، و رفع المتضعين " (لو١:٥٢) . إنه لم يرذل قلب داود المنكسر ، و لا قلب شمشون المنكسر أمامه ، و لا قلب أوغسطينوس المنكسر أمامه ، و لا قلب المرأة الخاطئة المنكسرة فى دموعها ، و لا دموع بطرس الذى بكى بكاءاً مراً ...
أن القلب المنكسر ، يمكنه أن يصلى صلاة مقبولة .
صلاة متضعة منسحقة ، يمكنها أن تدخل إلى الأقداس و تأتى باستجابة ، مثل صلاة حنة زوجة القانة ، التى صلت و هى مرة النفس ، و بكت بكاءاً ، و قالت ، يارب " إن نظرت نظراً إلى مذلة أمتك و ذكرتنى " (١صم١:١٠-١١) . مع أنها لم تكن صلاة توبة ، إنما كانت طلبة من قلب منكسر و روح منسحقة ...

القلب المنكسر مثل الزيتونة التى تعصر عصراً لتخرج زيتاً .
و هى مثل الزهرة التى تسحق فتعطى عطراً ، و مثل حبة البخور التى تحرق لتعطى رائحة زكية ترتفع إلى فوق ، و مثل الشمعة التى تذوب لتعطى نوراً ، " و مثل حبة الحنطة التى أن لم تقع فى الأرض و تمت ، فلن تعطى ثمراً " (يو١٢:٢٤) ... و مثل البئر التى إن لم تحفر فلا تعطى ماء ...
و القلب المنكسر له صفات روحية معروفة :
هو قلب متواضع ، لا يمدح نفسه ، و لا يقبل داخله المديح من آخرين . هو بعيد عن المجد الباطل ، متذكر لخطاياه باستمرار. إنه لا يبرر نفسه فى أى خطأ ، بل إن لومه لنفسه على أخطائه أكثر بكثير من اللوم الذى يوجه إليه من الخارج . إنه لا يجادل فى أية عقوبة توجه إليه . و لا يتعالى على أحد ، و لا يقسو ، و لا يدين و لا يلوم ، و لا يظن أنه أفضل من أحد
القلب المنكسر هو المحرقة التى تحولت إلى رماد .
إنه أمام نفسه ، و أمام الناس ، و أمام الله ، هو مجرد تراب و رماد ، مثلما قال أبونا ابراهيم عن نفسه (تك١٨:٢٧) ، و مثلما وصل إليه أيوب الصديق فى حواره مع الله (أى٤٢:٦) . القلب المنسحق هو ذبيحة أمام الله ، عملت فى مشاعره الداخلية نار العدل الإلهى ، و نار المحبة الإلهية ، فحولته إلى رماد ... و هو يبقى باستمرار رماداً ، لا يعود ليرتفع بع فتره من التوبة ، كما يحدث لكثيرين ... هنا و يقول المرتل للرب :

أنعم بمسرتك على صهيون ...

و أيضاً " و لتبن أسوار أورشليم " ، و كلمة صهيون ، و كلمة أورشليم ، أى " مدينة الملك العظيم " (متى ٥:٣٥) ترمزان باستمرار إلى جماعة المؤمنين ، أو إلى قلب الإنسان المؤمن ، حينما تأخذان معنى رمزياً ...
فهو هنا يتذكر أن قلبه المنكسر صار محرقة للرب ، و يتذكر أن المحرقة قيل عنها أكثر من مرة إنها " محرقة وقود ، رائحة سرور للرب " (لا١٧،١٣،١:٩)، فيقول للرب " أنعم بمسرتك على صهيون " أى أرض عنى و عن شعبك اظهر لى مسرتك بهذه التوبة و بهذا القلب المنكسر و هذه الروح المنسحقة ، و رافع غضبك عنى و عن شعبك ... و لتبن أسوار أورشليم ، أى أسوارى المنهدمة التى استطاعت الخطية أن تقتحمها و تدخل إلى قلبى ...
حينئذ يقربون على مذابحك العجول (أى الذبائح الكبيرة) .
أى المقصود بذلك ، أننا سنحيا حينذاك فى حياة التسبيح ، نقدم لك ذبائح الشكر و الحمد ، و ذبائح القلوب المنكسرة .

فهرست

تأملات فى صلاة الشكر	٧
صلاة الشكر	٨
فلنشكر	٩
فلنشكر صانع الخيرات	١٢
الرحوم الله	١٥
تطبيق الصلاة فى حياتنا	١٥
الله أبا ربنا و إلهنا و مخلصنا يسوع المسيح	١٩
الله	١٩
أبا ربنا و إلهنا و مخلصنا يسوع المسيح	٢٠
لماذا نشكر	٢١
لأنه سترنا	٢١
و أعاننا	٢٨
و حفظنا	٣٠
و قبلنا إليه	٣٣
و شفق علينا و عضدنا	٣٦
و أتى بنا إلى هذه الساعة	٣٧
هو أيضاً فلنسأله أن يحفظنا فى هذا اليوم المقدس	٣٨
و كل أيام حياتنا	٤٠
بكل سلام	٤١
الضابط الكل الرب إلهنا	٤١
على كل حال و من أجل كل حال و فى كل حال	٤٢
من أجل هذا	٤٤
أمنحنا أن نكمل هذا اليوم المقدس	٤٥
و كل أيام حياتنا	٤٧
بكل سلام	٥١
مع مخافتك	٥١
كل حسد	٥٤
و كل تجربة	٥٩
و كل فعل الشيطان	٦١
و مؤامرة الناس الأشرار	٦٤
و قيام الأعداء الخفيين و الظاهرين	٦٥
أنزعها عنا و عن سائر شعبك	٦٧
و عن موضعك المقدس هذا	٦٨
أما الصالحات و النافعات فارزقنا إياها	٧٠
لأنك أنت الذى أعطيتنا السلطان أن ندوس الحيات و العقارب	٧٠
و لا تدخلنا فى تجربة لكن نجنا من الشرير	٧٥
هذا الذى من قبله المجد و الكرامة	٧٥

تليق بك معه و مع الروح القدس	٧٦
المزمور الخمسين	٧٧
هذا المزمور بين المزامير	٧٩
ارحمنى يا الله كعظيم رحمتك	٨١
و مثل كثرة رأفتك تمحو إثمى	٨٤
أغسلنى كثيراً من إثمى و من خطيتى طهرنى	٨٧
لأنى ؟أنا عارف بإثمى و خطيئتى أمامى فى كل حين	٨٨
لك وحدك ؟أخطأت و الشر قدامك صنعت	٩٢
لكي تتبررفى أقوالك و تغلب إذا حوكمت	١٠٥
لأنى هانذا بالإثم حبل بى و بالخطايا أشتهتنى أمى	١٠٦
هكذا أحببت الحق إذ أوضحت لى غوامض حكمتك و مستوراتها	١٠٦
أنضح علي بزوفاك فاطهر و اغسلنى فأبيض أكثر من الثلج	١٠٧
أغسلنى فأبيض أكثر من الثلج	١٠٨
اسمعنى سروراً و فرحاً فتبتهج عظامى المنسحقة	١٠٩
أسباب عدم الحزن على الخطية	١١٠
فائدة الحزن و الانسحاق	١١٢
أصرف وجهك عن خطاياى و أمح كل آثامى	١١٨
فأعلم الأثمة طرقك و المنافقون إليك يرجعون	١٢٠
نجنى من الدماء يا الله إله خلاصى	١٢١
فيبتهج لسانى بعدلك	١٢٥
أفتح يا رب شفتى فينطق فمى بتسبيحك	١٢٧
الذبيحة لله روح منسحق	١٣٢
أما القلب المنكسر و المتواضع فلا يرذله الله	١٣٨
أنعم بمسرتك عل صهيون	١٤٠

يصدر قريباً جداً كتابان جديدان لقداسة البابا هما :

الجزءان الثالث و الرابع

من كتاب

سنوات مع أسئلة الناس